موضوعات الكتاب

الموضوع	الصحيفة
افتتاح	١
حروب عمر	٣
تعريف بعمر	»
سياسة عمر	٥
الحرب فى الميدان الشرقى	٧
موقعة البويب	٩
» القادسية	١١
محاورة يزدجرد للسلمين	١٩
» رستم وربعى	٣٥
بناء البصرة والكوفة	٤٤
الحرب فى الميدان الغربى	٥٤
موقعة اليرموك	٥٧
» أجنادين	٦٠

الموضوع	الصحيفة
فتح مصر	٦٧
المقوقس وعبادة	٨٣
تسليم الحصن (بابليون)	٩٢
تغييرات حدثت بعد الفتح	٩٥
مكتبة الاسكندرية	٩٧
شروط صلح الاسكندرية	١٠٤
فتح ليبيا والسواحل	١٠٩
وصف مصر لعمرو	١١٠
عثمان بن عفان	١١٣
الفتوحات فى عهده	١١٥
أهم نتائج الحروب الاسلامية	١٢١
ثورة الامصار في عهد عثمان وقتله	١٢٩
بيعة على	١٣٢
تذييل — على بن أبى طالب	١٣٥
ترجمة على	»

الموضوع	الصحيفة
خطبته بعد البيعة	١٣٦
أول أعماله	١٣٧
الجمل — صفين	١٣٨
التحكيم ونتيجته	١٤٠
مقتل علي وتولية الحسن	١٤١
تنازل الحسن الى معاوية	١٤٢
الخطأ والصواب	١٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه بقية القسم الاول من مذكرات الخلفاء الراشدين وفق المنهج المقرر على كلية أصول الدين وسمناها بعنوان (القسم الاول ب من الخلافة الاسلامية)

لقد كنا نحب أن نخرج هذا الكتاب بشكل أحسن، وطبعة أجمل، وأسهاب أوفى، وأن نضع له من الصور المناسبة والخرائط الملائمة ما يجدر باعظم عصر وضع للناس وسلف للدولة الاسلامية العظمى.

ولكن تألب الظروف فى أعقاب حرب ضروس، وصعوبة الطبع والنشر وما إليهما كل ذلك جعلنا نسرع بتسجيل هذه المذكرات العاجلة للنفع الخاص راجين أن نوفق لاخراجها قريبا فى صورة تليق بالنفع العام.

ولقد كتبنا فى هذا الجزء عن الحروب بادئين بعهد عمر الذى انتهينا إليه فى الجزء الاول من القسم الاول وقد عالجنا

هذا اللون من التاريخ علاجا نظن أنه جديد ومفيد

ذلك أن معالجة الحروب فى كتابات جمهرة المؤرخين كانت عبارة عن وصف للطعن والضرب والقتل والاسر ؛ واحصاء عدد الذين قتلوا أو أسروا وعدم العناية بالمحاورات والمناظرات التى كانت تسبق الحروب الاسلامية عادة .

كذلك لانرى من عنى عناية تذكر بتسجيل المعاهدات وعهود الحرب التى كانت تسفر عنها هذه الحروب في كثير من الاحيان ، فضلا عن النتائج السياسية والاجتماعية والدينية التى تنجم عن هذه الحروب ولقد حاولنا أن نتلافي هذه الناحية ، إذ جعلنا هدفنا الرئيسى من دراسة تلك الحروب تتبع المحاورات بين المسلمين وأعدائهم فى الشرق والغرب فى هذه الحقبة من التاريخ .

كما أننا سجلنا كثيرا من العهود والمعاهدات ، وأوضحنا بعض النتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وأخيرا ـ فاننا مع وجازة العبارة التى تعمدناها فى تصوير الحوادث عما الجأتنا إليه الضرورة المنهجية ـ نعتقد أننا كشفنا بعضا

من خبانا عصر ذهبي من عصور الخلافة الاسلامية ، وضحت فيه هزة الاسلام وعظمة دولته حتى تلاشت أمامها عظمة الفرس ، وهزة الروم واصبحت شهادة التوحيد بتجاوب صداها من نهر السند إلى بحر الظلمات ، ومن جبال الاورال إلى مجاهل أفريقيا والمحيط الهندى وسوف يشفى الله المسلمين من أمراضهم ، ويعيد اليهم مجدهم بعد تلك الفترة الطويلة التى لحقت بشعوبهم ودولتهم ، وسيسفر فجر النهضة الاسلامية الحاضرة عن صبح لا ليل بعده حتى يتم الله نوره ، ويكمل نعمته ، وما شيء على الله ببعيد ، إن شاء الله تعالى .

شبرا مصر فى مساء السبت ٢ من شهر رجب من سنة ١٣٦٦ هـ . الموافق ٢١ ـ ٦ ـ ١٩٤٧ م .

عبد الحميد بخيت

حروب عمر

١ — من هو عمر ؟

يتحدث التاريخ عن عمر مفاخرا بفضائله وعبقريته والحق أن الرجل يستحق التقدير والاطراء إذ هو من أولئك القلائل الذين سجلت لهم صفحات المجد والخلود .

وينتسب عمر الى الخطاب بن نفيل من بنى عدى بن كعب بن لؤى ، وأمه ضتحة بنت هاشم من بنى مخزوم ، فعمر قرشى أصيل ، ولد عمر بعد مولد الرسول بثلاث عشر سنة وتربى على الشهامة والجرأة . والصراحة ، وكانت سنه حينما اكرم الله محمد بن عبدالله بالرسالة ، سبعا وعشرين سنة ، فلما دعاه الرسول الى الاسلام ، لم يقتنع فى بادىء الامر ، ولذلك كان شديدا على المسلمين . وحاربهم حربا شديدة ، حتى كانت هجرة الحبشة ، وتحمل المسلمين الاذى فى سبيل دينهم ، فأخذ يفكر في هؤلاء وحدهم وما يلقونه من عنت ، ثم فى

مبادىء الدين الجديد ، وأغراضه ومراميه ، ثم شرح الله صدره للاسلام. فاسلم واعلن اسلامه في وقت لم يستطع غيره ان يقول كلمة الحق الا مستخفيا او من وراء جدر ، لكن عمر قال لا اله الا الله على ملأ من زعماء الوثنية وسادة قريش مما يدل على مبلغ قلب الرجل ، وشجاعته وصراحته . وقد تحمل من أذى المكيين مالا قبل لاحد باحتماله حتى أجاره العاص بن وائل السهمي.

ولما هاجر الرسول ، اشتد أذى المشركين للمسلمين حتى كان من يعرف انه سيهاجر يعد له اللون المناسب من التعذيب والعقاب . واما عمر فانه حينما اعتزم الهجرة لم يستطع أحد ان يتبعه فيلحق به أذى

حضر عمر جميع المشاهد مع رسول الله . وكان مع ابي بكر كالوزيرين للرسول الكريم وتزوج الرسول حفصة ابنته ، وظل موضع تقدير النبي وجميع المسلمين حتى توفى الرسول وكانت خلافة أبي بكر . فآزر ابا بكر ووقف الى جانبه بل كان اسبق الناس الى مبايعة ابي بكر ، وأعرفهم

حقه وقدره .

ولما اشتد على ابي بكر مرضه الاخير استشار المسلمين في تولية عمر من بعده فكلهم رضى به وزكاه ، فاستدلوا به خلافة المسلمين من بعده ، فكانت خلافته بركة للدولة ، وخيرا لجميع افراد الامة . وها هي ذي ناحية من اعماله ، تسجلها في توجيهه لدفة الحروب في الجبهتين الشرقية والغربية ضد الروم والفرس اللتين اقتسمتا ملك الدنيا حينئذ ، وقد استطاع ان يوقع الهزيمة بهاتين الدولتين ، وان يزيل احداهما من الوجود كما تراه بعد

سياسة عمر :

على اننا نرى حتما علينا ان نوجز منهج عمر الذي يتضح في خطابه الاول الذي اذاعه وقت بيعته قال :

إنما مثل العرب كمثل جمل آنف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . وأما أنا فوالله لأحملنكم على

الطريق [١] . يقول الاستاذ سيد أمير على (تأثرت سياسة الدولة باخلاق عمر على وجه خاص ، سواء كان ذلك فى حياته ام بعد مماته . اذ كان هدفه الرئيسى . هو توحيد شبه الجزيرة العربية ، وصهر القبائل فى جامعة عربية موحدة.. وثمة مناح اخرى من سياسته خليقة بان نوجه اليها اهتمامنا وأولاها اجلاء جميع العناصر القادمة من شبه الجزيرة لكى تخلو للعرب وحدهم ، وثانيها عدم التطرف فى الفتح ، وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره ان يدرك ان توطيد دعائم الامبراطورية وترقيتها ماديا يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من سكان البلاد الاصليين . وتحقيقا لهذه الغاية منع بيع الاراضى الزراعية فى الامصار المحتلة . كما سن قانونا يحظر فيه على العرب امتلاك الاراضى والضياع [٢] .

وعلى الجملة فان عمر كان فى الحقيقة الرجل الموهوب الذى

---

(١) ابن الاثير حـ٢ ص ٢٦٣

(٢) مختصر تاريخ ص٥ ـ ٥١

جعل للاسلام دولة قوية مرهوبة الجانب ، ونشر فيها لواء العدل وثقافة الاسلام وخلقه وكان هو نفسه المثل الاعلى فى التمسك بتعاليم محمد رسول الله ﷺ ومبادىء القرآن

هروب عمر فى الميدان الشرقى

اسلفنا القول بأن المثنى بن حارثة الشيبانى ، حينما رأى ملك الفرس قد حشد جيشا كثيفا وجلاء العرب عن المراكز التى احتلوها، انسحب الى الوراء قليلا ثم اسرع وحده إلى المدينة يطلب المدد من الخليفة ، فوجده على فراش ، وان قد اوصى ان يرعى عمر - وهو الخليفة بعد ابى بكر - جيش المثنى ، وان يمده بما يطلبه ، وقد نفذ عمر وصية أبى بكر فى اليوم التالى لوفاة أبى بكر . إذ ندب الناس مع المثنى الى أهل فارس قبل صلاة الفجر [1] . وظل عمر ثلاثة أيام يجهز الجيوش ويستعرضها ثم امر عليها ابا عبيد بن مسعود الثقفى . وهو والد المختار بن

---

(١) ابن الأثير حـ٢ ص ٢٩٧

عبيد ولما ازممت الجيوش على التوجه شطر الميدان الشرق بالعراق ، قام المثنى فخطب خطبة مطمئنة للناس . قال فيها «أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شق الوادي ونلنا منهم واجترأنا عليهم ولنا انشاء الله ما بعدها .

وقد خيب عمر رجاء المسلمين فى تولية هذا الجيش لاحد كبار المهاجرين والانصار ، قائلا . لا والله لا أفعل . إنما رفعهم الله تعالى لسبقهم ومسارعتهم الى العدو . فاذا فعل قوم فعلهم وقاتلوهم ، كان الذين ينفرون خفافا وثقالا ، ويسبقون الى الدفع اولى بالرياسة منهم والله لا اؤمر عليهم الا اولهم انتدابا ثم دعا ابا عبيد وسعدا وسليطا ، وقال لهم لو سبقتماه لوليتكما ولادركتما بها الى مالكما من السابقة . فأمر ابا عبيدة على الجيش وقال له اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الامر ، ولا تجتهد سرعا حتى تتبين (١)

---

(١) ابن الاثير حـ٢ ص٢٩٨

موقعة الجسر

وصل المثنى الى ميدان القتال ، ثم تبعه أبو عبيد بجيشه والتفت الجيوش بالحيرة ، فشنت الحرب على الفرس الذين ثار دهاقينهم بامر رستم قائد جيش فارس ، والقابض على مقاليدها وكانت أولى المواقع المهمة بين الفريقين موقعة «المروحة» على الشاطىء الغربى لنهر الفرات وفيها قتل أبو عبيد الثقفى ، وسبعة ممن حمل اللواء بعده ، ويقال أن أبازبيد الطائى النصرانى قاتل حمية للعرب ، وكان سببا فى انقاذ مابقى من جيش أبى عبيد الذى لم يختر لجيشه موقعا مناسبا كما نصحه المثنى .

موقعة البويب

بيد أن جند الفرس ـ رغم انتصارهم ، لم ينتهزوا فرصة هذا الفوز الباهر فى موقعة المروحة « الجسر » التى حدثت فى شهر شعبان من سنة ١٣ هـ[1] وظلوا متمسكين بمواقعهم على جسر الفرات ، وبلغ عمر خبر هزيمة جيشه ، فارسل جيشا بقيادة جرير بن عبد الله البجلى ، الذى استطاع ان

---

(١) نفس المصدر السابق .

يجمع من مقطوعة بجيله عـدد الغير قليـل على أن ينفلهم عمر ربع الخمس من الغنيمة .

كذلك أمد عمر المثنى بجيش آخر بقيادة عصمة بن عبدالله الضبي، واستنفر عمر والمثنى أهل المودة ، فاجابوا ونفر منهم جم غفير ، وقصدت هذه الجموع الى الحـيرة حيث جيش فارس مرابط فى جسر الفرات .

وقد التفت الجيـوش الاسلامية جميعها بمعسكرات البويب [١] المقابل لموقع الجيوش الفارسية ، وقد كانت هذه الجيوش محصورة بين نهر الفرات وفرع البويب .

كان قائد الفرس لهذا الجيش (مهران) فأرسـل إلى المثنى يخيره بين العبور إلى الفرس ، أو عبور الفرس اليـه ، فطلب المثنى منه أن يعبر هو بجنده، فعبر مهران وصف جيشه إلى ثلاثة صفوف مع كل صف فيـل عظيم ، والرجالة ، أمام الفيل ينشدون نشيد الامبراطورية الخالدة [٢]

١، البويب نهير بالعراق ٢، ابن الاثير حـ٢ ص ٣٠٤ ويقول =

بيد أنه ، ما كادت تدور رحى المعركة ، حتى انزل المسلمون بعددهم هزيمة منكرة ويقال أن المثنى طلب من انس بن هلال النمرى والذى لم يسلم بعد ، أن يعين المثنى على قتل مهران قائد الجيش ، ثم قتل مهران بيد غلام نصرانى من تغلب (١) وفر من بقى من الفرس ، فتبعهم المسلمون الى (ساباط) وراء الدجلة . ثم دخل المسلمون الحيرة عنوة وتم لهم النصر على هذا الجيش وكان ذلك فى سنة ١٣ هـ

القادسية

فى هذه الاثناء اعتلى يزدجرد عرش الفرس ـ وكان شابا طموح النفس ، لم يوطد العزم على طرد العرب من الحيرة فحسب ، بل عقد النية على اجتياح بلادهم . فارسل الى كلدة جيشا مؤلفا من مائه الف مقاتل ، فلما رأى المثنى قلة جيشه انسحب من كلدة الى حدود الصحراء ، وأخذ ينتظر وصول الامداد التى طلبها من المدينة والتى أخذ عمر يبذل

= واقبل الفرس فى ثلاثة صفوف مع كل صف فيل ورجلهم امام فيلهم ولهم زجل فقال المثنى للمسلمين الذين تسمعون فشل فالزموا الصمت (١) المصدر السابق

مجهودا جبارا فى جمعها وتجهيزها حتى لقد تظاهر بأنه سيصحب الجيش بنفسه ، وأوصى الجيش وأهتم به غاية الاهتمام .

أما الفرس فانهم بعد هزيمة جيش مهران ، نظروا إلى أنفسهم ، وعملوا لم شعثهم وتوحيد كلمتهم لمقابلة العرب جبهة متحدة ، ويدا واحدة . فاتفق رستم والقيرزان وسائر القواد على أن يعملوا تحت امرة الامبراطور الشاب (يزدجرد) حفيد كسرى وقد تبارى الرؤساء فى طاعته ، وجمع الجيوش وتجهيزها للدفاع عن الامبراطورية التى سلخ منها العرب «الحيرة وساباط وتكريت» وهم بصدد احتلال المدائن العاصمة الكبرى للامبراطورية .

ولذلك جهز الفرس جيشا كثيفا ، وقسموه إلى فرق أسموها بأسماء النواحى التى فتحها المسلمون .

بلغ ذلك المثنى ، فكتب الى عمر باجتماع الفرس على حرب المسلمين وطردهم من مراكزهم ولكن قبل وصول جواب عمر ، قام أهل السواد ونقضوا عهد المسلمين ، ورفعوا لواء التمرد والعصيان فانسحب هؤلاء من بلاد الفرس ،

وعسكروا فى حدود بلاد العرب على مصبات الفرات وفى هذه الاثناء توفي المثنى متأثرا بجراحه أو بحمى أصابته (١)

قيادة سعد ابن أبي وقاص

وتولى القيادة من بعده سعد بن أبى وقاص ، وقد جاء على رأس جيش كبير لتعزيز جيش المثنى، فبلغ بذلك جيش المسلمين حوالى ثلاثين الفا .

أما عن السبب في اختيار سعد للقيادة العامة ، مع أن الرجل الذى كان يجب تقديمه على الجميع هو أول من دخل هذه البلاد غازيا منتصرا . فهو أولا ما أسلفنا الحديث عنه من أمر خالد بن الوليد ونقمة عمر عليه مسلكه نحو مالك بن نويره مما دفعه لعزله عن القيادة حتى فى الميدان الغربى ، وعلى الرغم من أبا بكر قبيل وفاته أوصاه بأن يعيد جند

---

(١) يقول ابن الاثير انه كان قد جرح وان جراحه انفجرت فتوفى ، ويقول سيد امير على ان حمى كلدة هى التى فتكت بالمثنى « انظر حـ ٢ من الكامل فى التاريخ ، ومختصر تاريخ العرب « الترجمة العربية » .

الميدان الشرقى الى حيث كانوا بعد أن انتدبهم أبو بكر الى حروب الروم .

نقول على الرغم من وصية أبى بكر ، فان عمر أصر على ابعاد خالد نهائياعن شئون القيادة لانه اعتقدأن فى سيفه رهقاء ، وخالد كما ابنا هو أول قائد عام هزم الفرس فى الميدان الشرقى .

ثم السبب الثانى أنه أراد ان يختار رجلاذاخبرة وكفاية حتى يستطيع مواجهة جمعها الفرس ، وتدبير اعظم جيش اسلامى منذ موقعة اليرموك فى سنة ١٣ هـ . يقول ابن الاثير لما اجتمع الناس الى عمر خرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى «صرار» فعسكر به ولايدرى الناس مايريد ، أيسيرأم يقيم ، وكانوا اذا أرادوا أن يسألوه عن عن شىء رهوه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فان لم يقدر هذان على علم شىء مما يريدون تلقوا بالعباس بن عبد المطلب . فسأله عثمان عن سبب حركته فاحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم فى المسير الى العراق . فقال العامة . سر وسر بنا معك . فدخل

معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه برفق، وقال اغدوا واستعدوا . فاني سائر الا ان يجيء رأى هو امثل من هذا . ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب ، وأرسل الى على وكان استخلفه على المدينة فأتاه والى طلحة وكان على المقدمة فرجع اليه ، والى الزبير وعبد الرحمن ، وكانا على المجنبتين فحضرا ، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله، ويقيم ويريمه بالجنود . فان كان الذى يشتهى فهو الفتح . وإلا أعاد رجلا ، وبعث آخر ، ففى ذلك غيظ العدو . فجمع عمر الناس وقال لهم . انى كنت عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم . وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا فاشيروا على برجل ، وكان سعد بن أبى وقاص على صدقات هوازن ، فكتب اليه عمر بانتخاب ذوي الرأى والنجدة والسلاح . فجاءه كتاب سعد وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول قد انتخبت لك الف فارس كلهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ، ويمنع ذمارهم اليهم انتهت

احسابهم ورأيهم. فلما وصل كتابه ووافق مشورتهم قالوا لعمر قد وجدته . قال . من هو قالوا . الاسد عاديا سعد بن أبي وقاص . فانتهى الى قولهم وأحضره وأمره على حرب العراق ووصاه وقال (لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته . والناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء . الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذي رأيت رسول الله يلزمه فالزمه ، ووصاه بالصبر وسرحه فيمن اجتمع اليه من نفر المسلمين وهم أربعة الاف فيهم حميضة بن النعمان على بارق ، وعمرو بن معديكرب وابو سبرة ابن ذؤيب على مذحج ، ورجال على قبائلهم . ثم خرج فمر بفتية من السكون مع حصين بن نمير ومعاوية بن حديج ، فاعرض عنهم ، فقيل له . مالك وهؤلاء . فقال . ما مر بي قوم من العرب أكره الى منهم ، ثم أمضاهم . فكان بعد

يذكرهم بالكراهة (١)

لم يدخر عمر جهدا الا بذله فى هذه الحملة ، وأمر على الجيش سعد بن وقاص الزهرى القرشى ، وبعد أن نصحه وأوصاه أشار عليه بأن يعسكر في مكان حصين فى زرود .

وصل سعد الى المكان المذكور ، وفيه فض وصية المثنى وقرأها ، وفيها ينصحه أن يقاتل الفرس على حدود العرب ، وان يحذر من خداع الفرس ، واذ قد كان الفرس على أهبة القتال فقد سار سعد حتى التقى بهم بعد أن أرسل كتابا إلى امبراطورهم يدعوه الى الاسلام أو الجزية فلما وصل الرسول بالكتاب الى يزدجرد ومعه وزراؤه ، واستأذنوا بالدخول فاذن لهم وسألهم عما جاء بهم فقال لترجمانه سلهم مالذى دعاهم لغزو أرضنا وبلادنا . امن أجل تشاغل الفرس عنهم أم ماذا . فاجابه رئيس الوفد النعمان بن مقرن بقوله « أن الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يأمرنا

---

(١) ابن الاثير حـ ٢ ص ٣٠٩ - ٣١٠

بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على اجابته خير الدنيا والاخرة فلم يدع قبيلة ألا وقارب منها فرقة وتباعد عنه بها فرقة . ثم أمرنا أن نبتدى الى من خالفه من العرب فبدانا بهم فدخلوا معه على وجهين . مكره عليه فاغتبط، وطائع فازداد فمرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ثم أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله : فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية . فان أبيتم فالمناجزة . فان اجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا كم عليه على أن تحكموا باحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم» فتكلم يزدجرد فقال: انى لا اعلم فى الارض امة كانت أشقى ولا أقل عددا ولا أسوأ ذات بين منكم، كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفوننا أمركم . لا تغزوكم فارس ولا تطمعوا ان تقوموا لفارس . وان كان غرر لحقكم فلا يغرنكم منا . وان كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا الى خصبكم وأكرمنا وجوهكم

وكسونا كم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم فأسكت القوم.
فقام المغيرة بن زراره فقال :

أيها الملك ان هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم اشراف يستحيون من الاشراف وانما يكرم الاشراف ويعظم حقهم الاشراف ، وليس كل ما ارسلوا به قالوه ولا كل ما تكلمت به أجابوك عنه . وقد احسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك فجاوبني لأكون الذى ابلغك وهم يشهدون على ذلك لى :فأما ما ذكرت من سوء الحال فهى على ما وصفت وأشد. ثم ذكر جيش العرب وارسال الله النبي صلى الله عليه وسلم اليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية . ثم قال : اختر ان شئت الجزية عن يد وانت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك . فقال يزدجرد اتستقبلني بمثل هذا؟فقال المغيرة ما استقبلت الا من كلمني ، ولو كلمني غيرك لم استقبلك به . فقال يزدجرد : لولا ان الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندى . ثم استدعي بوقر من تراب . فقال احملوه على اشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن. ارجعوا

الى صاحبكم فأعلموه انى مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية وينكل به وبكم ، ثم أورده بلادكم حتى اشغلكم بانفسكم باشد مما نالكم من سابور . فقام عاصم بن عمرو ليأخذ التراب وقال . أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحمله على عنقه وخرج به من الايوان وولى الى راحلته فركبها واخذ التراب حيث عاد الرسل جميعا الى سعد بن ابي وقاص

وبعد ذلك نرى ان الفرس وعلى رأسهم يزدجرد كانوا مستهينين بأمر العرب أو بعبارة أدق تظاهروا بعدم المبالاة بهؤلاء العرب الذين ظلوا أحقابا لا تقوم لهم دولة موحدة كالدولة الفارسية وظلوا نبذا هنا وهناك فى شبه الجزيرة الجرداء واحسنهم حالا اولئك الجند المرتزقة الذين يستجلبهم مناذرة الحيرة وغساسنة الشام للقتال فى جيوش الفرس والروم ولم يكن واحد من آل المنذر بن ماء السماء ولا أمير من أمراء غسان ، سواء فى أيام الحرب أو السلم إلا وسيطا ماجورا بين القبائل العربية وبين الدلتين الفارسية والرومانية .

ولئن شئنا الحق والصراحة ، فاننا يجب ان نقول فى

صراحة وحزم . ان أول رجل جاهد فى سبيل توحيد شبه الجزيرة - وخلق من ضعفها وتناحرها قوة واخوة ، وجعلها كالبنيان المرصوص أو كالجسد الواحد انما هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ، ولذلك كان كل رسول من رسل سعد الى يزدجرد - كما أسلفنا - يبدأ حديثه بحال العرب ثم يكر مسرعا الى ما بذله الرسول فى ترقية هؤلاء وتعليمهم ، وهذا ليس من باب التبرك - كما قد يفهم الجاهلون بتاريخ الاسلام ولكن من باب الاشادة والقاء الرعب فى نفس السامع بان حال العرب قد غيرها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانهم اليوم غيرهم بالامس ولهذا نرى ان ننقل لكم المحاورة الآتية بين يزدجرد وبعض خلصائه . لتروا مبلغ ترددهم وخشيتهم من العرب المسلمين :

قال الملك لرستم وقد استدعاه من ساباط . فخضر - ماكنت ارى ان فى العرب مثل هؤلاء - ما أنتم بأحسن جوابا منهم ، ولقد صدقنى القوم . لقد وعدوا أمرا ليدركنه أو ليموتن عليه ، على أنى وجدت أفضلهم احمقهم ، حيث حمل التراب على

رأسه فخرج به فقال رستم : ايها الملك: إنه أعقلهم ، وتطير الى ذلك وأبصرها دون أصحابه ، وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبا وبعث فى اثر الوفد وقال لثقته ، ان ادركهم الرسول تلاقينا أرضنا ل إن اعجز سلبكم الله ارضكم فرجع الرسول من الحيرة بقوائهم فقال : ذهب القوم بأرضكم من غير شك . وكان رستم منجما كاهنا (١) .

على أن تطير رستم قد استبشر به عاصم والمسلمون فقد قال هذا الرجل وقد ذهب يحمل النراب الى القائد سعد ابشر فوالله لقد أعطانا الله مقاليد ملكهم

ولكن على الرغم من جراءة المسلمين على الفرس ، فانهم كانوا يخشون قوتهم ويقدرون خطرهم وعلى رأسهم الخليفة عمر بن الخطاب الذى لم يزايله التفكير لحظة فى هذه الحملة المغامرة فى الميدان الشرقى . فقد سبق أن أشرنا الى وصيته لقائد الجيش بالاناة والصبر والحذر والرفق بجيشه الضئيل

---

(١) ابن الاثير حـ٢ ص ٣١٦

الى جانب قوة عدوه وعدد جنوده ثم لم يكد يصل سعد الى الى «شراف» حتى كتب اليه عمر يقول .

أما بعد فسر الى شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعذ به على امرك كله واعلم فيما لديك انك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وعلى بلد منيع . وان كان سهلا لبحوره وفيوضه الا ان توافقوا غيضا من فيض . واذا لقيتم القوم اوأحداً منهم فابدؤهم الشد والضرب .

وأياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخدعنكم ، فانهم خدعة مكرة . أمرهم غير أمركم إلا ان تجادوهم ، واذا . انتهيت الى القادسية ـ والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى اجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الآصل . وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وانهار ممتنعة ـ فتكون مسالحك على انقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا احسوك أبغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم

وحدهم وجدهم فان انتم صبرتم لعدوكم — واحتسبتم لقتاله وأديتم الأمانة . رجوت ان تنصروا عليهم ثم . لا يجتمع لكم مثلهم ابدا . الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم، وان تكن الأخرى كان الحجر فى ادباركم فانصرفتم من ادني مدرة من أرضهم الى ادني حجر من ارضكم ، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم . وكانوا عنها اجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة .

ولم يكتف عمر بهذا الكتاب — الذى نرى توافقا كبيرا بينه وبين وصية المثنى لسعد مما يدل على توارد خواطر الرجلين عمر والمثنى — بل انه أرسل اليه كتابا آخر يعظه فيه ويذكره وينصحه بأن يكثر من ذكر الله ودعائه وان يصبر عند القتال وطلب منه ان يصف له منازل الجيش ومركزه ، وان يجعل الخليفة دائما على اتصال وعلم بكل التفاصيل التى تجرى فى هذا الميدان

وعلى الجملة ، فان سعدا نزل القادسية — التى هى باب فارس كما قال عمر — ويبدوا انه كان متوقعا جعل ميدان الحرب في

هذا المكان . اذ ترى الفرس والمسلمين يتحدثون عنه فكأنهما قواعدا القادسية ، فالواقعة بها ولا بد .

وظل سعد بجنده شهرا بالقادسية . لا يأتيه أحد من الفرس ولا يناوشه مع انه على ابواب بلادهم . ولذلك أرسل سرية بقيادة عاصم بن عمرو الى ميسان ، فطلب غنما وبقرا . فلم يقدر عليها ، وتحصن منه أهل ميسان ، فأسر عاصم رجلا بجوار آجمة ، واستدله على الغنم والبقر . فيقال ان الرجل انكر العلم بشيء من ذلك ، ولكن عاصما استطاع ان يعرف مكان هذه المواشي ، فاخذها واستاقها الى المعسكر ، فقسمه سعد بين الناس فاخصبوا أياما .

على انه يقال ان الذى دل عاصما ثور وراء الاجمة التى جلس الفارسى الى جانبها وان هذا الثور نطق قائلا « كذب عدو الله ، وهانحن أولاء » ومع ان هذا مستبعد فى العادة . فانه جائز على الله الذى انطق كل شيء

ويروى ابن الاثير ان هذه الحادثة بلغت الحجاج فى زمانه ، فكذب الذين رووها ثم انهم آلوا له انهم شهدوها

بانفسهم . فصدقهم : ثم قال لهم : ما كان الناس يقولون فى ذلك؟ قالوا آية تبشير يستدل بها على رضا الله وفتح أرض عدونا. فقال: ما يكون هذا الا والجمع ابرار أتقياء : قالوا والله ما ندرى ما أجنت قلوبهم . فأما ما رأينا فما رأينا قوما قط أزهد فى دنيا منهم ، ولا أشد بغضا لها ، ليس فيهم جبان ولا غال ولا غدار الخ

انتصار المسلمين

ومهما يكن من شىء ، فقد التحم الجيشان ، جيش المسلمين وقائدهم سعد بن أبى وقاص الذي كان يصدر أوامره من أعلى القصر حيث كان به بعض المرض ، وجيش الفرس وقائده رستم الذي كان على اتصال مباشر مع المدائن وامبراطور الفرس حفيد كسرى .

وقد ظلت المعركة دائرة ثلاثة أيام بلياليها واستمرت الى الظهيرة من اليوم الرابع ووقتئذ انهزم الفرس . وخارت قوتهم ، وانسل رستم قائدهم العام لينجو فرارا ولكن هلالا ابن علقة احد جنود المسلمين تبعه وقبض عليه ثم قتله ، وملك سريره وصعد عليه ثم نادى : قتلت رستم ورب الكعبة .

ويموت رستم وهو بطل الابطال فى دولتهم ، وبطل الفرس في شاهنامة الفردوسى لم يكن للجيش الفارسى وأية قيمة فقد ناوش مناوشات طفيفة ثم ولى الادبار لا يلوى على شىء إذ أن « ارماث وأغواث وعماس » كانت فاصلة ، وكانت القادسية قاصمة الظهر (١) .

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر « أما بعد فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعد قلم يرالراؤن مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك : بل سلبهم إياه ونقله عنهم الى المسلمين ، وتبعهم المسلمون على الانهار وعلى طفوف الاجام . وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان (وسماهم) ورجال من المسلمين

---

(١) ارماث وأغواث وعماس ايام الحرب الثلاثة ، والقادسية يومها الرابع الذى انتصر فيه المسلمون وهى اسماء امكنة حدثت بها المواقع فى هذا الميدان ، وسميت الموقعة بالمكان الذى فيه تم الظفر فى النهاية .

لا نعلمهم . الله بهم عالم . كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل ؛ وهم آساد الناس لا يشبههم الاسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى الا بفضل الشهادة . اذ لم يكتب لهم » .

وافرط شغل عمر بهذه الحملة ، كان يخرج كل يوم يتنسم أخبارها ، حتى جاءه البشير بالفتح على المسلمين . ويقال أن أن الرجل الذى حمل الخبر إلى المدينة التقى بعمر خارجها . فسأله عمر عن الجيش ، فقال « هزم الله العدو » واسرع الرجل براحلته الى المدينة ، ولا يعرف ان الذى يكلمه عمر ، فاخذ عمر يجرى وراءه وهو يقول « ياعبد الله حدثنى » فلا يزيده الرجل عن العبارة السابقة .

ودخل الرجل المدينة ليبشر الخليفة الذى لم يعلم أنه الانسان البسيط الذي يتبعه جريا على الاقدام يسأله عن الجيش ، وإذا بالمسلمين يقابلون عمر خلف البشير ويسلمون عليه بالامارة ؛ فكاد الرجل يذعر ، لانه لا يعرف عمر ، فهدأ عمر من روعه بقوله « لا عليك يا أخى » ثم سلم الرجل كتاب

سعد الى عمر ، فعند ذلك حمد الله وسجد له شكرا .

وبعد أن تقبل سعد خضوع المدن الواقعة بجوار الحيرة زحف على بابل حيث كانت قد تجمعت فلول الجيش الفارسى فدارت معركة رائعة بينه وبينهم أسفرت عن هزيمة الفرس وتمزيق شملهم ؛ ففر بعض قوادهم الى المدائن عاصمة الفرس وسار من القواد «الهرمزان» الى الاهواز . كما أتجه الفرزان صوب نهاوند .

ولكن سعدرأي أن الاستيلاء على «كلدة» لايتم نهائيا طالما تعسكر جنود الفرس فى المدائن . ولهذا زحف على عاصمة الفرس التى كانت فى موقعها تشبه بغداد بموقعها : إذ تبعد حوالى ١٥ ميلا من مجرى الفرات . وكان الغربى منها يسمى سلوسيا ، والقسم الشرقى يسمي (طاق كسرى)وقد سميت تلك العاصمة بالمدائن لكونها مؤلفة من مدينتين . كذلك كانت قصور الملوك ودور الاشراف تجمع الى الجمال وبهاء الرونق ، الترف والبذخ . وقد تأثر البسطاء بمشاهدة تلك المناظر الخلابة فى مبدأ الامر .

ويقال أنه بعد أن حوصرت المدائن ردحاً من الزمن اضطرت أن تفتح أبوابها صاغرة. كما أعقب احتلالها خضوع المدن الواقعة غربي الدجلة ، وقد صلى سعد صلاة الفتح مع الجند في قصر كسرى أنوشروان (ايوان كسرى) وقد قدم الدهاقين فروض الطاعة إلى سعد ، ونزل القصر الابيض وهو يقول (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين) .

ومما يذكره الخضرى بك ـ رحمة الله عليه ـ أن سعد جعل أيوان كسرى مسجدا وصلى فيه ، وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو والمسلمون لذلك . وتركوها على حالها وأتم سعد الصـــــلاة يوم دخول المدائن . لانه أراد المقام بها [1] ..

وهذا الذى يذكره الخضرى غير معروف لدى فقهاء الشريعة ، ولم اطلع عليه فى ابن الاثير ولا غيره من المراجع

---

(١) المحاضرات حـ ١ ص ٢١٤

التى تحت يدى ، ولعله نقله عن بعض مصادر متأخرة بيدأنى أخالفه فى هذا . إذ تواتران الاسلام حارب الوثنية فى كل مكان ، وحينما دخل الرسول الكعبة البيت الحرام ، أخذ يزيل الاوثان - وهى لاتعدو أن تكون تماثيل - بعود فى يده ، ويقول (وقل جاء الحق وزهق الباطل) وأمر رجالا من أصحابه بهدم اللات والعزى ، وغيرهما من الاصنام والتماثيل وهؤلاء أئمة الهدى الاربعة أجمعت كلمتهم على عدم أباحة وضع التماثيل والاوثان لافى المساجد ولا فى البيوت ، بل أجمعوا على كراهية الصور .

هذا : بل الرسول عليه السلام يقول « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ويقول عمر لسعد فى وصيته التى سجلناها آنفا : فانظر الامر الذى رأيت رسول الله يلزمه فالزمه : ومن الاشياء التى لزمها الرسول وأمر بها ماحدث به على بن أبى طالب حينما بعث بعض أمرائه على اليمن ان لايدع قبرا مشرفا الا سواه بالارض ولا تمثالا إلا طمسه وأزاله . وقال على أن رسول الله

بعثه من قبل بهذا ، فهو يوصى به إلى أبى الهيجاء الأسدى مبعوثه على اليمن والأدلة على ذلك كثيرة لاتحتاج إلى كبير نظر . وغفر الله للمرحوم الخضرى نقله لهذا الخبر الذى لايعدو في نظرنا أن يكون احدي الفرى على الحق والتاريخ والله المستعان .

وبعد : فاننا وقد أتينا على وصف موجز للقادسية ، لانحب أن نغادر هذا الموضع قبل أن نسوق ذلك الموقف الذى وقفه رستم بطل الجيش الفارسى ، الذى كان راغبا فى مهادنة المسلمين ، بل فى اعتناق الاسلام لولا فظاظة أشراف فارس ، وخشيته من ضياع مركزه فى دولة الأكاسرة يقول ابن الاثير فى ذلك :

فلما وصل رستم القادسية ، وقف على العتيق بحيال عسكر سعد ونزل الناس فما زالوا يتلاحقون حتى اعتموا من كثرتهم ، والمسلمون ممسكون عنهم . وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا ، منها فيل سابور الأبيض . وكانت الفيلة تألفه فجعل فى القلب ثمانية عشر فيلا ، وفى المجنبتين خمسة عشر

فيلا ، فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار من العتيق نحو خفان حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ، ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة ، وأرسل إلى زهره فوافقه فأراده على أن يصالحه ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه من غير ان يصرح له بذلك . بل يقول له : كنتم جيراننا وكنا نحسن اليكم ونحفظكم ، ويخبره عن صنيعهم مع العرب ، فقال له زهرة : ليس أمرنا أمر اولئك ، ولا طلبتنا طلبتهم إنا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الاخرة ، وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا ، فدعانا الى ربه فأجبناه ، فقال لرسوله : إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني ، فانا منتقم بهم منهم ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به ، وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز . فقال له رستم : ما هو . قال : أما عموده الذى لا يصلح إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والاقرار بما جاء به من عند الله قال : ما أحسن هذا ، وأى شيء أيضا . قال : وإخراج العباد

من عبادة العباد إلى عبادة الله . قال : حسن . وأى شيء أيضا . قال والناس بنو آدم وحواء أخوة لأب وأم . قال ما أحسن هذا . ثم قال رستم : أرأيت إن أجبت إلى هذا ومعى قومى . كيف يكون أمركم ، أترجعون : قال : أى والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة . قال : صدقتنى والله . أما ان أهل فارس منذ ولى أردشير لم يدعوا أحدا يخرج من عمله من السفلة . وكانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم ، تعدوا طورهم ، وعادوا أشرفهم ، فقال زهرة : نحن خير الناس للناس . فلا نستطيع ان نكون كما تقولون ، نطيع الله فى السفلة . ولا يضرنا من عصى الله فينا . فانصرف عنه رستم ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا ، فأنفوا . فقال : أبعدكم الله وأسحقكم ، أخزى الله أخرعنا وأجبننا (١) .

على أن رستم لم يكتف بهذا ، بل تحت عاطفة السلام التى استولت على مشاعره ، واصل بحوثه ليتأكد من هدف العرب

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٣١٩ — ٣٢٠

الذى يهدفون اليه فى حربهم هذه . فأرسل إلى سعد أن ابعث الينا رجلا نكلمه ويكلمنا ، فدعا سعد جماعة ليرسلهم ، فقيل له إن الخير أن ترسل رجلا واحدا ، فبعث إلى رستم بربعى ابن عامر ، فسار هذا حتى وصل اليهم ، فجمع رستم عظماء فارس واستقبلوا رسول سعد اليهم ، فدخل الرسول حاملا سلاحه ، بعد أن شق وسادتين ربط بهما فرسه ، فأظهر الفرس عدم المبالاة بذلك ولكنهم طلبوا منه أن يضع سلاحه ، فرفض ، ولم يكتف بهذا بل أخذ يتوكأ على رمحه ويمزق البسط والنمارق التى زين بها الفرس غرفة القائد العام ، فلما اقترب من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البسط فطلب منه أن يجلس على النمارق فرفض قائلا : إنا لا نستحب الجلوس على زينتكم هذه (١) . ثم كانت هذه المحاورة الآتية بينه وبين رستم :

رستم : ما جاء بكم ؟

---

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٣٠

ربعي : الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام ، فارسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم اليه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه دوننا ، ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر

رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم ان تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ، وتنظروا .

ربعي : نعم ، كم أحب اليكم ، أيوما أو يومين ؟

رستم : بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا

ربعي : إن مما سن لنا رسول الله (صلعم) وعمل به أئمتنا أن لانمكن الأعداء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل . إما الاسلام ، وندعك وأرضك . أو الجزية فنقبل ونكف عنك ، وإن احتجت الينا نصرناك أو المنابذة فى اليوم الرابع ، ولسنا نبدأك فيما بيننا وبين اليوم الرابع . إلا أن تبدأ . أنا كفيل

بذلك عند أصحابى .

رستم . أسيدهم أنت ؟

ربعى . لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم [1]

وبعد أن انتهت تلك المحاورة بين رستم وربعى ، قام رستم فخلا برؤساء قومه فقال ما ترون . هل رأيتم كلاما قط أغرب وأوضح من كلام هذا الرجل . فقالوا معاذالله أن نميل إلى دين هذا الكلب . أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال . ويحكم لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة إن العرب تستخف باللباس والمأكل ، وتصون الأحساب ليسوا مثلكم .

فلما كان من الغد ، أرسل رستم إلى سعد أن ابعث الينا ذلك الرجل ، فبعث اليهم حذيفة بن محصن ، فأقبل فى نحو من ذلك الزى ، ولم ينزل عن فرسه ، ووقف على

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢١

رستم راكبا ، فقال له رستم انزل . فقال حذيفة . لا أفعل فقال ما جاء بك ولم يجيء الأول قال له ان أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشده والرخاء ، وهذة نوبتى . فقال . ما جاء بكم ، فأجابه مثل الأول ؛ فقال رستم المواعدة الى يوم ما قال نعم ثلاثا من أمس . فرده ، قال . لأصحابه ويحكم أما ترون ما أرى ، جاءنا الأول الأمس فغلبنا على أرضنا وحقر ما نعظمه وأقام فرسه على زبرجنا وربطه به ، وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا وهو فى يمين الطائر يقوم على أرضنا دوننا .

ويواصل رستم ما اعتزمه من الوقوف على أغراض هؤلاء الفاتحين ، والمبادىء التى اعتنقوها فغيرت أخلاقهم وبدلت سياستهم . فبعد برهة وجيزة من صرف حذيفة ، راسل سعد بن أبي وقاص ليبعث اليه برجل آخر يفاوضه ويحادثه .

وفى اليوم التالى لسفارة حذيفة أرسل سعد المغيرة ابن شعبة ليحادث رستم ويفاوضه فأقبل المغيرة الى الفرس ،

وعليهم النيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم مفروشة على مسافة طويلة . بحيث لايوصل الى رستم الا بالمشي مسافة فأقبل المغيرة حتى جلس على السرير مع رستم فوقبوا عليه وأنزلوه وأمسكوا بتلابيبه . فقال لهم : قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوما أسفه منكم . انا معشر العرب لايستعبد بعضنا بعضا ، الا أن يكون محاربا لصاحبه . فظننت أنكم تواسون قومكم كما تتواسى . فكان أحسن من الذى صنعتم ، أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، فان هذا الامر لايستقيم فيكم ولا يصنعه أحد وانى لم آتكم ولكن دعوتمونى . واليوم علمت أن أمركم مضمحل وانكم مغلوبون ، وأن ملكا لايقوم على هذه السيره ولا على هذه العقول . فقالت جماهير الفرس صدق والله العربى . وقالت الدهاقين . والله لقد رمى بكلام لاتزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله اولينا ما كان احقهم حين كانوا يصفرون امر هذه الامة (يقصد العرب)

ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم امرهم وقال . لم نزل

متمكنين فى البلاد ظاهرين على الأعداء ، أشرافا فى الامم فليس لأحد مثل عزتنا وسلطاننا ، ننصر عليهم ولاينصرون علينا إلا اليوم ، واليومين ، والشهر للذنوب . فاذا انتقم الله منا ورضى علينا رد لنا الكرة على عدونا ، ولم يكن فى الامم أذلة أصغر عندنا أمرا منكم ، كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة ، لا نراكم شيئا ، وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشىء من التمر والشعير ، ثم نردكم ، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم . فأنا آمر لاميركم بكسوة وبغل والف درهم ، وأمر لكل منكم بوقر (حمل) تمر وتنصرفون عنا ، فانى لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم . وفى هذا الكلام من رستم كثير من الكهانة والخداع ، فانه قد ناقض اعتقاده في مقدرة هؤلاء العرب ، ونيتهم فى هذه المرة أن يفتحوها أو تعتنق مبادئهم وليسوا كلاب مأكل كما زعم وليسوا هم الذين ترضهم التمره واللقمة ، ويرضيهم اللباس ، وإن طرز بالجواهر . لان هذا الزمن أدبر إلى غير رجعة ، وقد محيت رموزه من شبه

الجزيرة منذ دانت لمبادىء الاسلام ، وعملت بتعاليم رسولها الكريم فى الدين والسياسة « وعدالله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم » .

ولذلك وثب المغيرة وثبة المسلم العربى ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال . إن الله خالق كل شىء ورازقه ، فمن صنع شيئا فانما هو بصنعه . وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك ، فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهوله دونكم وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف . فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ، ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا اليها ، ولو شكرتم ما آتاكم الله . لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل الكفر لكان عظيم ما ابتلينا به مستجلبا من الله رحمة ورأفة علينا ، ولكن الشأن غير ما تذهبون اليه أو كنتم تعرفوننا به ، ان الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا :

ثم ذكر مثل ما ذكر صاحباه من الاسلام والجزية والقتال وقال ان عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم ، فقالوا لا صبر لنا عنه فقال رستم . اذن تموتون دونها ، فقال المغيرة . يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم يدخل النار ، ويظفر من بقي منا بمن بقي منكم .

فاستشاط رستم غضبا ثم حلف بالشمس أن لا يرتفع الصبح غدا حتى يقتل جميع العرب.

بيد أن رستم كما أسلفنا كان مضطرب النفس من هؤلاء العرب ، يخشى من حربهم ولقائهم ، حتى لقد قال لاخيه فى بعض المواقف انى لاقاد الى هذا الوجه ، وليس لى رغبة فى حرب هؤلاء القوم ، بل أنه كثيرا ما نصح اشراف فارس أن يصالحوا العرب ، وعبثا حاول اقناع قومه . بيد أنه حينما أيقن بأن قومه مصممون على الحرب لم يشأ أن يخسر قومه ، أو يتخلى عن وطنه ، ولذلك قلب للعرب ظهر المجن وصمم على لقائهم وليكن ما يكون .

وعلى الجملة ، فان هذا الرجل لقى حتفه على يد أحد الجنود

المسلمين وانتهت هذه المقارعات باللسان والسنان بهزيمة منكرة لدولة الفرس وانتصار عظيم للدولة الاسلامية. حسبما أبنا آنفا يقول سيد امير على . والآن وقد أصبح سعد حاكما مدنيا عسكريا على العراق رمن ضمنه الجزيرة فقد اتخذ المدائن مقرا لحكمه ، ونزل القصر الملكى كما خصص أجنحته للدوائر الرسمية وكان يصل بالمسلمين صلاة الجمعة فى الايوان الكبير ، ومن هذا القصر طفق يدير شئون الولاية .

ولكن ما انقضت فترة وجيزة حتى رأى المسلمون أنفسهم مضطرين الى امتشاق الحسام . اذ أن ملك الفرس المقيم فى حلوان أنفذ جيشا كثيفا لاسترداد المدائن فالتقى الفريقان فى جلولاء على بعد خمسين ميلا من العاصمة فى شماليها الشرقى . فدارت بين الفريقين معركة رائعة أسفرت عن هزيمة الفرس وانتصار العرب [1]

---

(١) ص ٢٨ من تاريخ العرب

وكانت الجيوش بعد القادسية قد تفرقت فى ضياصى الجبال حول الدجلة ، وهرب الملك يزدجرد إلى حلوان ، وجاءت القبائل المتوطنة فى حوض الدجلة تطلب الدخول فى طاعة المسلمين على الذمة والجزية .

ولذلك أرسل سعد بعض قواده واستولى على حلوان فهرب ملك الفرس وذهب إلى الرى ، وعقد العرب معاهدة صلح مع الفرس بعد هزيمة هؤلاء في جلولاء قرب حلوان ، وطردهم يزدجرد من حلوان كما سبق ، كما فتح العرب فى هذه الاثناء عرفاً الابله على شط العرب .

وفى سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) أنشئت مدينتان جديدتان فى العراق . البصرة على شط العرب ، وقد نزلها عرب الشمال وكونوا غالبية سكانها . والكوفة ، وقد شيدت على شاطىء الفرات الغربى على ثلاثة أميال من جنوبى الحيرة ، وقد استوطنها اليمانيون من عرب الجنوب ، وحلت محل المدائن التى هجرها العرب لسوء مناخها . ومما يذكر أن هاتين المدينتين شيدتا على أساس منظم فخططت فيهما

الشوارع والميادين العامة ، وبنى فى وسط كل منهما مسجد جامع ، وسوق فسيحة ، وحدائق غناء .

وقد ظلت الحياة فى العراق هادئة ردحا من الزمن ، تفرغوا فيه لاصلاح تلك الولاية الجديدة ، فمسحوا أرضها ، وأدخلوا نظاما جديدا فى تقدير الضرائب فيه تخفيف عن كاهل الفلاحين ، كما أصدر الخليفة أمراً بمنع بيع الاراضى من أربابها أهل السواد ، وأمر بأن يقرضوا مبالغ من المال يستعينون بها على إصلاح أراضيهم كذلك أمر الخليفة بمصادرة الضياع الملكية ، وغابات الصيد وأملاك الامراء ، وكبار الاغنياء الهاربين ، والاوقاف المحبوسة على معابد النار التى هجرها الكهان ووضعها جميعاً تحت إدارة وكلاء جاءوا خصيصاً من المدينة .

وكان الجنود قد طلبوا أن توزع عليهم الاراضى التى فتحوها ، ولكن أمير المؤمنين رفض هذا الطلب رفضاً باتا ، واكتفى بتوزيع جزء من ايراداتها على العرب الفاتحين (١)

(١) انظر سيد أمير على ص ٢٩ .

ولكن هذا الهدوء لم يكن إلا فترة تجهز واستعداد من جانب الفرس طالما بينهم امبراطورهم ينفخ فيهم بغض العرب ، والاستعداد لاسترداد ما أخذوه من الفرس .

وفى أواخر سنة ١٧ هـ قام العلاء بن الحضرمى والى البحرين بحملة ضد اصطخر ، ولم توفق هذه الحملة التى قام بها العلاء إذ أن الفرس تقهقروا أمامها ليخدعوها ، حتى عبرت البحر بعد أن سدوا عليهم منافذ النجاة وعبثا حاول العرب أن يغلتوا من هذا الفخ الفارسى الذى سببه حب العلاء للفخر ومنافسة قائد القادسية .

ولما بلغت الاخبار عمر سارع بعزل العلاء ، وأرسل عتبة ابن غزوان أمير الابله ، أن يعمل على تخليص الجيش الاسلامى وقد أرسل عتبه حوالى اثنى عشر الف جندي ، واستطاع أن ينقذ المسلمين من مأزقهم الذى حشرهم فيه أمير البحرين .

كانت حملة العلاء الفاشلة ، سببا فى ظن الفرس أن المسلمين ، شرعوا يتقهقرون عن بلادهم ، وأن الذين

هزموا جيش العلاء من الممكن أن يخرجوا العرب الباقين من أراضى الامبراطورية .

ثم أن عمر كان قد أصدر أوامر مشددة بأن لا يتقدم المسلمون شبرا فى أرض الفرس ، زيادة عن الاماكن التى استولوا عليها .

ولهذا أخذ يزدجرد يتجهز فى الرى ، ويعد الجيوش لطرد المسلمين ، فكتب سعد أمير العراق إلى عمر بذلك فتردد عمر أول الأمر ، فأوفد اليه سعد بعض رؤساء الفرق ليقنعوا الخليفة ، بوجوب ازالة رمز الدولة الفارسية الذى لا يكف عن مناوأة المسلمين ، ومن كلام بعض أعضاء الوفد لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين . إنك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما فى أيدينا . وان ملك الفرس حى بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئا بعد شىء الا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم

حتى تأذن لنا فى الانسياح فى بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته . فهناك ينقطع رجاء أهل فارس . وكان هذا المتكلم الاحنف بن قيس أمير الحكم العالية فى العراق . وطلب عمر الهرمزان الذى أسر آنفا ، واعتنق الاسلام وعاش فى المدينة ، أن يبدى رأيه فى هذه المسألة فأيد الهرمزان كلام الأحنف ؛ وبذلك أمر عمر بالانسياح فى بلاد الفرس . ففى سنة ١٧ هـ أمر أبا موسى الاشعري أن يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة حتى يأتيه أمره . وبعث بفرق متعددة الى بلاد فارس . فأرسل الأحنف بن قيس أمير فرقة خراسان ، وأسند الى مجاشع ابن مسعود قيادة جيش أردشير وسابور (مدينتين بفارس) وعقد لعثمان بن أبي العاص لواء اصطخر .

وكذلك أرسل فرقا الى كرمان بقيادة سهيل بن عدى والى سجستان بقيادة عاصم بن عمرو ، ومكران للحكم ابن عمير التغلبي ونسا ودارا بجرد لسارية بن زنيم الكنانى

وبعد أن فصلت الفرق من العراق ، أرسل عمر على

أثرها امدادات كثيرة ، إذ كان هذه المرة عازماً عزما أكيداً على ازالة ملك الفرس ، وضم بلادهم الى دولة المسلمين نهائيا .

* * *

أما الفرس . فانهم عندما علموا بهذا شرعوا يمدون العدة ، فأعلن يزدجرد التعبئة العامة فى جميع بلاد الامبراطورية ، فجاءته الجيوش والمطوعة من حدود الصين ، والمحيط الهندى ومن سائر أنحاء الدولة ، فبلغ جيشه فيما يقال حوالى ١٥٠٫٠٠٠ مائة وخمسين الف مقاتل ، بينما جيش المسلمين لايصل الى ثلاثين الفا .

ولذلك لما وصلت الانباء الى الخليفة داخله القلق حتى فكر فى قيادة الجيش بنفسه لولا رأى مجلس الشورى بأن يبقى الخليفة فى العاصمة ، فأسند عمر قيادة الجيش العامة الى النعمان بن مقرن أمير خوزستان وفاتحها .

وفى نهاوند التقى المسلمون بالفرس ، وكانت موقعة فاصلة انهزم فيها الفرس ، وقتل منهم حوالى ثمانين الفا ، بينما

كانت خسارة المسلمين قليلة إذا استثنينا القائد العام الذى خر صريعا فى ميدان القتال .

قورت موقعة نهاوند في سنة ١٨ هـ مصير آسيا ، وسميت بفتح الفتوح وفر يزدجرد ضاربا فى الافاق حتى استقر به المطاف أخيرا وبعد مدة فى مرو ثم انتهى به الحال الى أن فتك به أحد أتباعه فى قرية قريبة من تركستان ، فى عهد عثمان الخليفة الثالث .

وباندحار هذا الجيش ، وموت يزدجرد فيما بعد عنت بلاد الفرس لسلطان المسلمين .

وفى الحال اتخذ الخليفة — كما اتخذ فى الجزيرة من قبل — تدابير فعالة ، لاقرار الفلاحين على حالتهم ، وانقاذهم من ربقة العبودية وعسف الدهاقين (كبار الملاك) ، وأصلح نظام الضرائب وأمر بترميم الجداول وشق الترع ، كما أقر الملاك على أراضيهم على أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وضمن حرية العبادة وحظر على المسلمين التعرض لدين أهل البلاد الاصليين وقد أطلق المسلمون على

الذين ظلوا على دينهم القديم « أهل الذمة » أو الذميين .

على أن الجزية — وهي الميزة الوحدة — كانت مما أغرى كثيرا من أهل البلاد لاعتناق الاسلام ، ولم تكن هذه الزيادة الطفيفة الالقاء الاعباء من الانخراط فى سلك الجندية ، وحماية من يدفعها من أى اعتداء يقع عليه . ولذلك أخذ الناس يدخلون فى دين الاسلام أفواجا طوعا لا كرها ، على عكس ماتفعله الدول الحديثة من الاساليب لتغيير عقائد الناس الذين يدخلون في سلطانهم . وأقرب الدول الينا الآن فرنسا وايطاليا وما اتبعتاه فى المغرب الاسلامى منذ عهد قريب .

على أن السياسة الاسلامية قد أمرت بالمؤاخاة بين المسلمين من أى جنس ولون وبين غيرهم ممن اعتنق الاسلام ، وسمى بالموالى تمييزا لهم عن العرب الفاتحين ، وهو اصطلاح أملته التقاليد أكثر من المبادىء ، لأن الاسلام ليس دين العرب وحدهم بل هو دين الانسانية فى أعلى مثلها ، وأسمى غاياتها . وأجل ثمراتها .

ولكن على الرغم من ذلك ، ومن اتباع الحكام العرب أتم قوانين العدل والمساواة ، والصالح العام ، فان السكينة لم يكفوا عن اقلاق مضاجع الدولة الفتية . أذ طالما حرضوا السكان الذميين على شق عصا الطاعة على المسلمين ، وكانت الدولة أحيانا ربما لجأت الى ضروب من القسوة تحت تأثير الظروف الطارئة بيد أن السياسة الرشيدة فى عهد الاربعة كانت خالية من هذا النوع من التنكيل بأهل الذمة ، ولكن قد يكون حدث شيء من ذلك فى عهد الملكية الأموية ، ومن بعض ولاتها فحسب ، فلما كانت العباسية عادت سياسة اللين والرحمة التى سار عليها خلفاء الاسلام فى أول الأمر ، مع فارق بسيط أملاه التطور ، وتغير الأيام .

وعلى كل حال : فقد استطاع عمر بعد أن ثبت أقدام المسلمين فى البلاد الفارسية ، وأزال آخر رمز لسيادتها ، أن ينظم شئونها وأن يرفع الظلم عن أهالى البلاد ، مما خلده التاريخ بمداد الحمد والثناء ، وبجعل جميع الأهالى يقبلون

على اعتناق الدين الجديد ، ويتفانون في سبيل نصرته، ونشر ثقافته وتعاليمه حتى كان الموالي من الفرس من أعظم العوامل في النهضة الاسلامية التي أنارت للعالم سبل الحياة في جميع مناحيها .

وهذا من غير شك ، مما يعزز أن الاسلام ليس دين العرب بل دين العالم ، وأن صلاحيته في السياسة، والادارة الى جانب التشريع والعبادة . قد جربت ونجحت أتم نجاح مع شتى الأمم والشعوب، والتاريخ خير شهيد وحكم ، فليقرأه من يشاء وليحكم بالحق ان أراده .

أما مانشهده اليوم من هذه الشراذم الهزيلة من رفع رؤوسها وعقائرها بالاشادة بفقه علماء الفرنج وانكبابهم على دراسة مؤلفاتهم مع عزوفهم عن معين الاسلام الصافي وزعمهم أن للدين مدرسة ، وللمدنية معاهد وغير ذلك مما يشهده المسلم وهو يتقطع أسى على أبناء الاسلام الذين يدعون البنوة له وهم من أعق الناس وشرهم عليه ، فان هذه المقابر ، وتلك الصيحات . ماأملاها الا ضعف النفوس .

والمرض المتأصل فى قلوب هؤلاء فاللهم صبراً وغفراً . فقد بلغ السيل الزبى واتسع الخرق ولاقوة إلا بك يارب العالمين

حروب عمر مع الروم

ونتنقـــــل بكم الى صفحة أخرى من سجل الجهاد الاسلامى الذي سطره الفاروق . فى الميدان الذي أسميناه « الغربى » مع الروم فى الشام وفلسطين وهو الميدان الذى حالف النصر فيه المسلمين حتى ضموا الى دولتهم بر الشام وفلسطين ، ثم الأردن . والعريش ووادى النيل (مصر) ثم منه مدوا فتوحاتهم الى المغرب الاقصى فاسبانيا. وفتحوا جزر البحر الأبيض وجعلوه بحيرة اسلامية وأصبحت مآذن التوحيد . وشهادة الاسلام . ورسالة محمد ينادى بها فى البر والبحر من حدود الصين الى جنوب افريقية ومن الهند الى المحيط الاطلانطى . وذلك فى العصور التالية لعمر وسنحاول أن نوجز لكم صورة عن حروب الميدان الآنف فى عهد عمر . فاليكم ذلك :

في جمادى الأولى من سنة ١٣ هـ (٣١ يوليه سنة ٦٣٤ م) توفي أبو بكر وخلفه عمر الفاروق ، وقائد الميدان الغربي خالد بن الوليد الذى ، انتقل من الميدان الشرقى وتسلم القيادة فى حرب الروم بأمر الخليفة أبي بكر وكان تحت امرته من قواد الفرق ، أبو عبيدة بن الجراح ، ثم عمرو بن العاص ، ويزيد بن أبى سفيان يساعده أخوه معاوية ابن أبي سفيان ، ثم شرحبيل بن حسنة .

على أن وفاة أبى بكر لم تحدث تغييراً يذكر في السياسة العامة فان عمر كان مطلعاً على جميع شئون الدولة فى عهده ، وكان موافقا على جميع الأمور التى اتبعها سلفه ، فيما عدا قيادة خالد بن الوليد ، فان عمر كان له فيها رأى أبداه علنا أمام أبي بكر ، حتى أن أبا بكر لما وصى عمر فى أخريات حياته ، لم يلزمه بابقاء خالد اميراً . بل انه أمره بأن يرد جيش خالد إلى الميدان الشرقى . ولم يعرج على ذكر خالد بحرف من كلمة . مراعاة لشعور عمر الذى كان يميل أبو بكر إلى رأيه — فى هذه المسألة — لولا أنه كان لا يريد

أن يخطئ قائد جند أمام مرؤوسيه . كما أنه كان ينصح الأمراء بما لايجعلهم ينفرون منه . وهي في رأينا السياسة لا ما كان يرى عمر .

ولذلك . فانه ما كاد عمر يبايع له . حتى ارسل إلى أبي عبيدة كتابا بتوليته القيادة العامة . وعزل خالد . وعدم توليته قيادة أية فرقة ولو صغرت .

ولما وصل الرسول بالكتاب وجدالمعركة مستعرة بين الروم وبين المسلمين . فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبي عبيدة ولم يذعه لئلا تضعف به قوة الجنود . ثم وضع الكتاب في كنانته حتى انتهت الموقعة . بذلك النصر . فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة . وسلم عليه بالامارة وما يؤثر عن خالد في ذلك اليوم قوله : الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت . وكان أحب إلي من عمر . والحمد الله الذي ولى عمر وكان أبغض إلي من أبي بكر . ثم ألزمني حبه[1]

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية حـ ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤

تولى أمارة الجيش أبو عبيدة بن الجراح . بعد انتصار المسلمين فى موقعة « اليرموك » مباشرة . ولم يشأ أن يذل نفس خالد فيجعله جنديا عاديا ، بل انه قدر فيه رئيسه السابق . وواضع خطة الانتصار في أكبر موقعة خاضها المسلمون حتى اليوم . بل انه جعله على مقدمته وبعد أن انتهت الموقعة « اليرموك » ودفن القتلى ووزعت الغنائم والاسلاب . زحف أبو عبيدة إلى بيسان حيث تجمعت فلول الجيش البيزنطى لصد المسلمين عن التقدم نحو الشمال بيد أن خالدا أفسد عليهم خطتهم وأرغمهم على مغادرة بيسان حيث تحصنوا بمكان اسمه « الفحل » فاتبعهم خالد وحصرهم واستطاع أن يرغمهم على التسليم بعد فترة وجيزة

وفى ذى القعدة من سنة ١٣ هـ سار خالد نحو دمشق لحصارها . وعلى مسافة قليلة منها عسكر انتظارا لأوامر الخلافة .

وفى شهر المحرم من سنة ١٤ هـ وصل خالد الى دمشق وألقى عليها الحصار وكان يعاونه أبو عبيدة وعمرو بن العاص

ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل ، وكل منهم على ناحية من أسوار دمشق المنيعة وقد وصلت الأنباء إلى هرقل ، فأرسل فرقة الفرسان لانجادها فصدتها خيول المسلمين التي عند حمص ، وكان أبو عبيدة قد فرق جيشه إلى فرق وعين لها مراكز تمتد من فحل إلى حمص شمالا وفيما بين ذلك الجنود موزعة على مراكز وكمائن — فما كادت جيوش هرقل تغادر حمص ، حتى أوقع بها جند المسلمين ، وهزموها شر هزيمة ، فولت لا تلوى على شيء .

ولما اشتد الحصار على أهل دمشق ، طلبوا الصلح فصالحهم أبو عبيدة والقواد الآخرون ، عدا خالداً فانه كان قد سبقهم إلى دخول دمشق عنوة ، فقتل وأسر وغنم ، ولذلك كان فتح الناحية التي دخل منها خالد عنوة ، وبقية نواحي دمشق فتحت صلحاً

وبعد فتح دمشق ، صرف فرقة خالد إلى العراق ، وأمر عليهم هاشم بن عتبة ، واستبقى خالداً معه وأمره على مقدمة جنده ثم استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق ،

الذى مد فتوحه إلى سواحل دمشق ، فاستطاع أن يضم إلى ولايته مدن صيدا وعرقة ، وجبيل ، وبيروت ، وكان على مقدمة يزيد أخوه معاوية[١]

كذلك أرسل أبو عبيدة ، شرحبيل ومن معه إلى بيسان ، فضمها صلحاً ، كما ضم بعض قواد أبي عبيدة مدينة « طبرية » ونزل أهلها على حكم المسلمين فجعلوهم كأهل « دمشق » .

وفيما كان أبو عبيدة يستولى على القسم الأكبر من سوريا الشمالية كان عمرو بن العاص ، يحرز فى فلسطين النصر تلو النصر أما الحاكم الرومانى المسمى « ارطبون » فكان قد حشد جيشاً كبيراً للدفاع عنها ، كما عزز ، فى الوقت نفسه حاميات القدس وغزة والرملة ، ونزل ميدان القتال بنفسه فى أجنادين إحدى القرى الواقعة شرقى القدس (إيليا) الواقعة بين الرملة وبين بيت جبرين من أعمال فلسطين[٢]

---

(١) ابن الأثير والخضرى ، ومذكرة الدكتور زياده

(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨٦

ولكن لم يمض قليل وقت حتى زحف قواد العرب إليهم، وكان القتال الذى حمى وطيسه حتى كاد يفوق اليرموك ، وقد بذل عمرو جهداً جباراً فى هذه المعركة ، إذ أحكم رسم الخطط وسبر غور عبقريته الشهيرة فى الدهاء والخداع ، ضد عدو شديد المراس حتى استطاع أن يظفر بذلك النصر ، الذى قضى على الدولة البيزنطية إلى الأبد فى الشرق الأدنى ، وشواطئ آسيا الغربية على بحر الروم (البحر الأبيض) .

ومما يذكر عن عمرو ، أنه بعد أن عسكر بجيشه قبالة أرطبون قائد الروم ، وطالت المدة ، ولم يستطع ان يستدرج الروم إلى القتال ، سار عمرو إلى أرطبون فى هيئة رسول لعمرو ، فدخل عليه ، وأبلغه ما أراد وسمع كلامه ، وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد ، فيقال أن أرطبون فطن به وقال : لا شك أن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله . ثم أمر إنسانا أن يقعد على طريقه ليقتله إذا مر به ، ففطن عمرو لفعله . فقال له : قد سمعت منى وسمعت منك ، وقد

وقم قولك منى موقعاً ، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر ابن الخطاب ، إلى هذا الوالى لتكاتفه ويشهدنا أموره ، فارجع فأتيك بهم الآن ، فان رأوا الذى عرضت على الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر ، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم ، وكنت على رأس أمرك : فقال أرطبون نعم ، ورد الرجل الذى أمر بقتله: وقال لعمرو انطلق وجئ بأصحابك ، فخرج عمرو من عنده ، ورأى أن لا يعود إلى مثلها وعلم الرومى أنها خدعة اختدعه بها ، فقال : خدعنى الرجل . هذا أدهى الخلق (١)

ويقال أن هذه الحادثة بلغت عمر بن الخطاب . فقال :

لله در عمرو :

وقد كان هذا الأسلوب من عمرو فى حروبه ، من أهم العوامل التى أحرز بها النصر . إذا استطاع فى مثل هذه المغامرة الناجحة أن يعلم رأى قائد الروم ، وأن يشهد بنفسه العدد والعدد التى ستقابل جنده بعد قليل .

---

(١) ابن الأثير جـ ٢ ص ٣٤٧ .

وكان ذلك النصر فى سنة ١٥ هـ فى أصح الروايات .

وكان من نتائج هذا الانتصار فى اجنادين ، تسليم عدة مدن مهمة فى دولة الروم ، مثل نابلس ويافا وعسقلان وغزة والرملة وعكا كما أسلفنا .

وكان فى القدس (ايليا) حامية قوية قاومت مدة طويلة ثم أعلن بطريقها رغبته فى الصلح ، على أن يسلم المدينة للخليفة نفسه : وعندئذ سار أمير المؤمنين فى غير ماتردد إلى الشام لا يصحبه غير خادم واحد ، وكان فى استقباله فى الجابية وفد من أهل دمشق ، فأعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم على أن يدفعوا الجزية ، ومن ثم شخص مع الوفد إلى القدس. فاستقبله على أبوابها البطريق «صفرونيوس» فدخلها الاثنان وهما يتحادثان ، ويقال : أن الخليفة امتنع عن الصلاة فى كنيسة القيامة التى اتفق وجوده فيها وقت الصلاة ، فصلى على إحدى درجاتها . وقد قال الخليفة فى ذلك: أنه لو صلى فى فنائها لنقض المسلمون العهد فى المستقبل بحجة الاقتداء به فى الصلاة :

ثم منح وفد الرملة شروطاً كالتى منحها لوفد القدس أما اليهود الذين كانوا قد ساعدوا المسلمين على الفتح . فقد أقرهم على أملاكهم وأعفاهم من الضرائب .

وعندما شقت القبائل الأرمنية والكردية عصا الطاعة أرسل إليهم الخليفة قوة كبيرة ، فأنزلت بهم أشد أنواع العقاب أما هرقل فانه ظفر بعقد اتفاق مع المدن الكبرى التى لم تكن قد أذعنت بعد للتسليم للعرب . ولكن الخليفة عندما علم بهذا أنفذ إليهم جيشاً كبيراً لقتالهم .

وفى هذه الأثناء أخذ هرقل يحاول المحاولة الاخيرة فى معركة حاسمة ضد العرب .

ولذلك أعلن التعبئة العامة فى جميع أقاليم الامبراطورية وقد جاءته الجيوش تترى من مصر والاناضول ، وارمينية وليبيا وغيرها ، وبلغ ماجيشه من المقاتلة حوالى ١٦٠ مائة وستين الف مقاتل بينما جنود الاسلام لا يبلغون الاربعين ألفاً تنقصهم أسلحة الروم ، واستعداداتهم ، ولكن لهم قلوباً ، تكن فيها إيماناً قوياً ، وثقة بالنصر والظفر .

ولهـذا فما كاد الروم يغيرون على أرض فلسطين ، ويستولون على بعض مدنها وقراها حتى وصلت الانباء إلى القيادة الاسلامية فى الشام ، فأصدرت أمراً إلى جميع الفرق بالاستعداد للقاء العدو .

ونشب القتال فى فلسطين . وانتصر العرب على الروم وأخرجوهم نهائياً من أرض الشام ، وأرض المعاد ، ويئس هرقل نهائيا من استرداد هـذه البلاد ، ولذلك عزم على الرحيل من أنطاكية التى أصبح العرب قاب قوسين منها . إلا أنه أراد أن يودع كبار المسيحية وأعوانه الوداع الاخير فجمع كبار قومه فى حفل حافل فى كنيسة أنطاكية يستشيرهم فيما يعمل — ولـكنه فى هذا الوقت ، كان كأن عقله قد فلج

ثم عرض للبحث فى أمر هؤلاء العرب الذين أغاروا على بلاد الامبراطورية ، ولم ينحسر مدهم بعد ، مما جعله يوقن بأن المسألة ليست اغارة كأخواتها السابقة حين كان هؤلاء الاعراب ، يغيرون فيردهم بحفنة من فتات المائدة ، أو دريهمات من ضرب الدولة الرومانية الـكبرى بل هم فى

هـذه المرة غزاة فاتحون ، مصممون على نشر مبادىء جديدة لم يمهدها الروم من قبل .

فهذه ألقاب جديدة تفدق على قواد الحملة ، وهؤلاء صنف جديد من العرب لم يعرف من قبل ، وهـذه فنون عسكرية لم تسبر الدولة العظمى غورها بعد .

ليس القوم طلاب دنيا فضلا عن زاد أو ملبس ، ولا هم دعاة جاه ونفوذ ، فلباسهم الخرق الممزقه ، بل انهم ليفخرون بهذا الطراز من اللباس ويتشدقون بهذا اللون من الحيـاة الرثة الوضيعة . إنّ التغلب على هؤلاء ضرب من المستحيل بل هو المستحيل بعينه .

لقد تواطأ رسلهم جميعاً على كلمات ثلاث ، لم يشذ واحد عنها ، ولم يحور فيها ، ولم يبدّل من صرامتها .

كلهم يقول : الاسلام أو الجزية أو المناجزة : أى بلاء ذلك الذى نزل بالامبراطورية ، ان ذكر القوم : مجرد ذكر أسمائهم (سيف الله) أمين الأمة — الفاروق — الصديق ليلقى الرعب فى أشجع الروم قلبا ، فما بالك بجند

لا جامعة بينهم ، ولا هدف لهم . جند الامبراطورية كلهم مرتزقة مأجورون ، مايكاد الواحد منهم يعرض عليه الدفاع عن شرفها حتى يساوم : بكم قرش هذا الدفاع ، وإذا انتصر فكم ديناراً يمنح . تلك غاية الجيش ، وهدف الضباط .

ما أمر الحياة ، في هذه البلاد ، فلنغادرها ، ولنحاول تحصين مصر ، فلعل فيها سلوى لنا من فقد الشام وأرض المعاد .

* * *

مانخال هرقل الا وقد دار بخلده كل هذا بيد أن شيخاً كبيراً لم يدعه يطيل التفكير . بل قام وأخذ بيدى أسفه على الموقف الذى وصل إليه الأمبراطور ، والمسيحية بأسرها ، وتقصيرها عند حماية الصليب فى أرض الصليب . قال ذلك الشيخ أن الروم يعذبون اليوم لعصيانهم كتاب الله وتطاحنهم فيما بينهم وتخاذلهم ، ولما يرتكبون من الربا والقسوة . وكان عليهم أن يؤخذوا بذنوبهم .

كان قول ذلك الشيخ فصل الخطاب . فأحس الامبراطور

بضعف الجسم ووهن العقل ورأى الحظ يتعثر به وعرف أن مقامه بالشام قد أصبح لاغناء فيه. فرحل عنها إلى القسطنطينية في البحر في شهر سبتمبر سنه ٦٣٦ م وقال إذا هو راحل وداعا يا بلاد الشام ، وداعا ما أطول أمده .

ويقال إن هرقل استطاع أيضا أن يحمل معه الصليب الأعظم وبقية مخلفات المسيحيه ، حيث وصل إلى خلقيدونية حيث كان يقيم في قصره إلى جوارها ؛ ثم سار بعد فتره إلى بيزنطه حيث أودع هذه المقدسات النصرانية كنيسة ابا صوفيا وبذلك ختمت صفحة الروم في الشام إلى الابد .

ولكن هل يقنع العرب بالشام وأرض المعاد ، وهل يظلون هدفا لهؤلاء الروم المتاخمين في وادي النيل (مصر) ذلك ماسنتحدث عنه فيما يلي .

فتح مصر

بعد أن سلم البطريق (صفرونيوس) الشيخ مدينة بيت المقدس ، سار عمر بن الخطاب الخليفه عمر بن العاص القائد وذاهبا نحو الشمال ؛ وقد أنفذ الخليفة عمرو بن العاص

ممدا للجيش المحاصر لقيصرية .

أما الخليفة فقد أقام فى دمشق ولعل عمرا قد أفضى اليه برأيه فى فتح مصر منذ كانا فى بيت المقدس ، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك لم يحن بعد . فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت ، عاد عمرو الى عرض رأيه . وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى ، وما كان عليه فتحها من السهولة وقال أنه ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة ولا أعظم منها غنى وثروة ثم قال : أن حاكم الروم على بيت المقدس وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها قد لاذ بمصر وإنه كان يجمع فيها جنود الروم وأن العرب ينبغى أن لا يتركوا الوقت يضيع سدى ، بل يجب أن يأخذوا على يد الحاكم الرومانى قبل أن يشتد خطره : على أن مصر ستكون بعد فتحها قوة للمسلمين ، وظهرا لهم يستمتعون بغناها ويخصبون بخيراتها وأن من المؤكد أن هذا الكلام من عمرو فى الاجتماع الذى عقد بالجابية فى سنة ٦٣٠ م ، صادف هوى من عمر ، ولكنه كان يقدر المصاعب التى قد تتعرض لها حملة تقصد أرض الفراعنة

فيها جيش قوى من جنود الروم المجهزين الكثيرى العدد ولكن الغارات المتوالية التى أخذ الروم يشنونها على أملاك المسلمين بالشام تستدعى الجد والتفكير فى وضع حد لهذه الاستفزازات والمتكرة وهل من الممكن أن يبقى المسلمون بجوار الروم ويعتدى هؤلاء على أراضيهم ، ويقفون مكتوفي الايدى لا يبالون بصنيعهم ولا يقابلون الاعتداء بالمثل ،فتسقط هيبتهم من نفوس الروم . ولهذا كان الخليفة يتنازعه عاملان عامل السلامة والاحتفاظ بالجيوش الاسلامية ريثما تستجم وتتجهز وعامل الوقاع عن كرامة الدولة ؛ وتأمين ممتلكاتها فى الشام وفلسطين .

ولقد رأى عمر أن فتح مصر فيه خير المسلمين،ولكن ظن أن عمر يقلل من من الصعوبات التى قد تعترضه فى فتحها : وكان عمر فى ذلك الحين لا يمكنه أن ينقص جند الشام فيقتطع منه جزء يسير الى مصر ، وقيصرية لاتزال صامدة للحصار ، ويتزعم المقاومة فيها قسطنطين بن الامبراطور .

على أن عمرا استطاع أن يفتح قيصرية وان يرغم نجل الامبراطور على الفرار[١] ، وحينئذ عاود الحديث مع الخليفة فى فتح مصر ، ورجاه أن يأخذ له بجيش لا يزيد عن أربعة آلاف رجل نوعده أمير المؤمنين أن يفكر فى المسألة

استشار الخليفة مجلس شوراه ، فأوصى بالحذر والاناة وعدم الجرى وراء عمرو بل وينبغى لفته إلى المتاعب التى تلحق المسلمين من قد فتح مصر

غير ان الخليفة كان راغبا فى فتح مصر وانما تردد بسبب الظروف التى أشرنا اليها ولذلك أذن لعمرو فى المسير الى مصر على أن يرجع أن وصله كتاب منه قبل أن يدخل الحدود فليسر على بركة الله تعالى فسار عمرو بن العاص فى الليل بجيشة الصغير ، ولم يصادفه حادث ما فى مسيره حتى صار على الحدود بين فلسطين ومصر وفى رفح على مرحلة من العريش من أعمال مصر ، وأبصر عمرو رسلا تسرع على

---

(١) مختصر تاريخ العرب - ويروى مى البلاذرى أن فتح مصر كان وقيصرية محاصرة . ولكن الراجح فى رأينا ما أثبتناه هنا

افراسها إليه تحمل رسالة الخليفة، فاخذ عمرو السير ليصل الى الاراضى المصريه، وظفر فعلا بامنيته. فقد لقته الرسالة وهو فى العريش، ففضها فاذا فيها: أنه اذا كان عمرو وقت تسلمه الرسالة مازال فى حدود فلسطين فليعد من حيث أتى وان كان قد دخل أرض مصر فليسر، وعمر مستعد لامداده بما يحتاج إليه فلما أن عمرو بمدأن جعل الجنود يشهدون أمام الرسل بأنهم فى أرض مصر فعلا ثم قال لهم إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين

ويحدثنا الدكتور بتلو عن سبب تردد عمر أخيرا بأن عثمان كلم الخليفة فى عمرو بن العاص، وأنه رجل مغامر فيه جراءة وتهور، وانه لابد مقتحم بالناس المخاطر، ورام بهم الى المهلكة، فخشى عمر خشية عظيمة وعول على أن يأمر ابن العاص بالرجوع اذا كان ذلك ممكنا ولكنه أحس أن أن جيش العرب اذا دخل مصر كانت عودته عارا خذلانا وسبة للمسلمين. ويكون ذلك بمثابة الفرار من العدو، وعلى ذلك أرسل كتابه وتقدم فيه إلى عمرو بما سبق (١)

(١) فتح العرب ص ١٧٤ لبتلو.

ومهما يكن من شيء . فقد وصل عمرو حدود مصر بجيشه البالغ أربعة آلاف فارس كما ذكرنا ، وسار حتى وصل الفرما تلك المدينة التي تعد مفتاح مصر من شمالها الشرقي ، وقد اشتبكت حاميتها مع فرقة عمرو الصغيرة ، ولكن المسلمين غلبوا حامية المدينة واستولوا عليها دون كبير عناء وبذلك أصبح في يد عمرو ممقل يؤمن خط رجعته ومواصلاته إذا نزلت به هزيمة في المستقبل ولخطورة المهمة التي ستواجهه بعد فتح الفرما فانه عمد إلى أسوار المدينة وحصونها فهدمها وخربها لينعدم انتفاع الروم بها في التطورات المقبلة المحتملة

على أن الروم لم يتحركوا عندما وصلتهم أنباء (الفرما) معتمدين على حامية المدينة في الذود عنها وقد مضى أسبوعان من بدء حصار المسلمين لها ، والرومان لا يبدون أي شيء يشعر باهتمامهم بها .

وحوالي ١٥ محرم سنة ١٩ هـ (١٧ يناير سنة ٦٤٠ م) سار عمرو في داخل الأراضي المصرية حتى وصل إلى مدينة (مجدول) إلى الجنوب الغربي من الفرما واستولى عليها ،

ثم ترك فيها حامية صغيرة واتجه صوب القنطرة فالسويس وفى التل الكبير هزم الروم الذين ناوشوه فيه فهزمهم واستولى على ذلك الموضع ، ثم واصل سيره حتى بلبيس فحصرها قرابة شهر ثم فتحها وأبقى بها حامية صغيرة من جنده القليل .

وهكذا ظل عمر يسير حتى وصل الى هليوبولس حيث فتح ام دنين واحتلها وعسكر فيها ، وكانت شمالى حصن بابليون ، وموضعها الان حديقة الازبكية ولما علم الروم بجد العرب فى الفتح وتملك البلاد هب المقوقس وتيودور رئيس الجيش وشرعا فى تجهيز جيش كبير لملاقاة العرب واستطاعا ان يجمعا عددا كبيرا من جند الروم ومتطوعة القبط وبهذا عزما على لقاء العرب بقيادة عمر بن العاص ، وقد تحصن الروم فى بابليون « حصنهم الشهير فى جنوبى ام دنين فرأى عمر ، ازاء هذا التجهز من الروم ، ان يطلب مددا من المدينه وقد ارسل إلى الخليفة بذلك ، فوعده بأنه سيرسل اليه مايريد من الجند والسلاح

على ان عمرا اصبح على شيء من القوة باستيلائه الفرما ، ثم على أم دنين المجاورة لمعسكر الروم ، وفي الوقت نفسه رأى من جبن الروم عن لقائه ما يجعله يقف موقف المتأني في هيبة وبأس

ومما يذكر ان عمرا استطاع اثناء مقامه في ام دنين «الواقعه على ضفاف النهر» أن يستولى على بعض السفن من الروم ، يعبر بها الى الشاطىء الغربى حيث اتجه جنوبا نحو منفيس عاصمة الفراعنه ، فالقى الرعب فى نفس الجيش المتحصن بالحصن ، كما استطاع ان يتصل ببعض اهالى البلاد ويعرف نواياهم نحو العرب ، كما اتصل بكبار القبط المسيحيين وكسب ودهم ومساعدتهم من قبل ، فى اغلب الظن ، حينما وصل الى الفرما تلك المدينة التى كانت عامرة بالكنائس والقساوسة من رجال القبط المسيحيين

كانت الفرما اذن مدينة عظيمة ومهمة اذ منها يبدأ سور مصر العظيم الذى بناه الفراعنة فى غابر الزمن ، الذي سماه العرب (سور العجوز) وقد تهدم معظم هذا السور وقت مجيء عمرو الى

مصر ، ولم يبق منه الا النذر من جدرانه التى لاتقل شمبها عن جدر الاطلانطى الهتلرية فى سنة ١٩٤١ م

ولقد ظل عمرو بكبيته الصغيرة مرابطا على الحدود طوال ايام عيد الاضحى من سنة ١٨ هـ (١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩ م) حتى تمكن من فتح الفرما والسير الى ام دنين وتهديد «بابليون» كما اسلفنا :

لم يكن لدى العرب الذين جاؤوا مع عمرو شئ من عدة الحصار ، ولم يكن لهم علم بطرقه ، وما كانوا ليملكوا مدينة الا بالمهاجمة وفتح الابواب . او بالصبر الى ان يضطر العدو الجوع والضيق ، ان ينزل اليهم ، وقد ملك العرب جميع الاماكن التى استولوا عليها من الفرما الى ام دنين ، بهذه الوسيله الساذجة

اما حاكم مصر الرومانى «قيرس» فانه عندما علم بخطر العرب ، واقتطاعهم اجزاء مهمة من ولايته فانه سارع الى جمع جنوده وعسكر في «بابليون» وأخذ يتجهز للقائهم فحفر الخنادق حول الحصن ، واقام الاسوار حول المدائن المهة وخصوصاً الاسكندرية « عاصمة وادى النيل حينئذ .»

وبذلك تأهب قيرس ، فى الجنوب والشمال للدفاع عن وادى النيل (مصر)

اما عمرو فقد توقف فى «ام دنين» قليلا منتظرا الرد من الخليفه بالمدينه ، وقد سارع الخليفة بامداده وفي اثناء الامدداد ، لم يكف عمرو عن مناوشة الروم ، بل انه ـ كما اشرنا عبر النهر وسار نحو الجنوب حتى بلغ ممفيس (عاصمة مصر قديما) وشاهد مساكن الفراعنه ، ورأى الاهرام الباسقة فى الجانب الغربى للنيل ، وبجوارها عاصمة الفراعنة ، والى الشاطىء الشرقى صروح الحصن الرومانى (بابليون) ثم اتجه جنوبا على سفح الاهرام ، حتى وصل الى حدود الفيوم (بيوم) وكان حاكمها (دومنتياس) محافظ المدينة . اما حاكم الاقليم فكان اسمه (تيودوسيوس) وكلاهما رومانى

ولما رأى حاكم الفيوم ، ان العرب يريدون اخذ بلادهم ، سارع الى الدفاع عنها ، ولكن بعد فوات الوقت . اذ سد عليهم عمرو بفرقته الصغيرة ، منافذ النجاة ، ففر الرومان الى حصن بابليون تاركين امر الدفاع الى الاهالى فقام (حنا) النقيوسى قائد

كتيبة الخضراء ، وحنا الماروسى مساعده بلقاء العرب وقد حاول هذان المصريان ان يعرقلا سير العرب نحو الجنوب فعدل العرب الى الصحراء الغربيه وواصلوا سيرهم ، مستولين على كل ماصادفهم من غنم وبقر ، وظلوا سائرين حتى وصلوا البهنسا ففتحوها عنوة . وقد استطاع عمرو ان يقضى على كتيبة حنا الماروسى الذى كان يتبع العرب منذ كانوا فى سفح الاهرام والان ظفر به ولكل بفرقته من المغامرين ، وكان ذلك فى المدة بويط او ابويط من اعمال البهنسا فى ارجح الروايات (١)

كان أول سير عمرو إلى الفيوم حوالى شهر مايو من سنة ٦٤٠ ميلادية وقد قضى فى غزوته بضعة أسابيع أضاعها الروم ضياعا حتى أنهم خسروا خسارة كبرى وغنم العرب فيها مغانم كثيرة . وبعد ذلك بحوالى شهر وصلت الأمداد التى بعث بها الخليفة إلى عمرو وكان أولها بقيادة الزبير العوام وتبلغ كتيبته حوالى الأربعة آلاف مقاتل . ثم

(١) أنظر بتلد ص ١٩٧ فى فتح العرب لمصر

كتيبتان أخريان يبلغ عددهما ثمانية آلاف وبذلك أصبح عدد الجنود العرب إثني عشر ألفا إلا قليلا . وبهذا العدد إلتقى عمرو وهو القائد العام الجيش العربى بجنود الروم بقيادة قيرس (المقوقس) حاكم مصر الرومانى . وبطبيعة الحال كان تحت إمرته قواد فرق يأتمرون بأمره سجّل منهم الدكتور بتلر . تيودور وأنستاسيوس وتيورو سيوس وغيرهم مما لاضرورة لذكره وعلم الروم أن هذا الجيش إنما يهدف إلى انتزاع هذه الولاية الغنية من إمبراطوريتهم ولذلك تربصوا بهم قبل أن يقبض النيل لتكون بينهم وبين العرب موقعة فاصلة على أرض ثابتة ولكنهم رغم كثرتهم عجزوا عن القيام بأى عمل يذكر فى ضد العرب .

لقد استطاع عمرو في أقصر فترة أن يملك مدنا وأراضى عظيمة فى وادى النيل قبل أن تصل إليه أمداد من المدينة فهذه الفرما وبلبيس وأم دنين ومنفيس والأهرام والفيوم والبهنسا وبويط من أعمالها وما بين العريش والبهنسا تحت قبضة العرب ، فلما جاءت الأمداد وبلغ جيش العرب

أربعة أضعافه لم يكن من المستطاع على الرومان أن يصمدوا لهذا الجيش وقد عجزوا أن يصد وربع عددهم من قبل .

وإذ لم يكن بته من المناجزة فقد التقى العرب بالروم فى مواقع تعتبر حاسمة من أهمها موقعة عين شمس (هليو پولس) ثم أخيرا حصار حصن بابليون الذى تجمع فيه الجيش الرومانى ولم يستطع أن يظهر بأنفسه للعرب على أثر موقعة عين شمس (هليو پولس) .

ولذلك رأى المقوقس (قيروس) أن المسألة قد أصبحت فى غاية الحرج ، إذ أصبح العرب سادة البر ، وهم المسيطرون على النيل .

وحوالى شهر سبتمبر من سنة ٦٤٠م . بدأ حصار حصن بابليون ، وقد ضيق عليه عمرو الحصار حتى اشتد الحال على الروم الموجودين فيه ، ولا خلاف بين المؤرخين أن قيرس (المقوقس) كان فى الحصن عند بدء الحصار ، وكذلك تيودور قائد الرومان المشهور ، ولعل الرجلين قد فرا بعد موقعة هليو پولس ، وعاذا بهذا الحصن المنيع ،

وكان فى الحصن غير قيرس حاكم مصر ، وجورج والاعيرج قائد الجند ، كثير من أهالى مدينة مصر والادبرة المجاورة ، والتى كانت منتشرة شرقى الحصن تلك البقعة التى كانت عامرة بالنخيل والأعناب ، والكنائس المسيحية .

لقد ظل المقوقس ، ومن يحيط به في بابليون آمنين على أنفسهم فترة غير قليلة ، وكانت مجانيقهم التى لا تكف عن رمى العرب ، قد جعلت هؤلاء ينفد صبرهم ، فيمطرون أهل الحصن وابلا من مجانيقهم وسهامهم ، حتى أيقن الروم أن لابد لهم من التسليم يوما ما للعرب وأخيراً أتفقت كلمة الروم ، على ان يفاوضوا العرب فى بذل جزء من المال لهم ، ويرجعوا عنهم ، وأن يكون وفد المفاوضات برئاسة قيرس (المقوقس) حاكم مصر .

وفعلا فتح الباب الحديدى المؤدى الى النهر ، واستقل الوفد السفن ، وعبروا الى جزيرة الروضة ، فلما بلغها ارسل الى عمرو جماعة على راسهم اسقف بابليون ، فلقيهم عمرو وأكرم وفادتهم . فأدوا رسالتهم ، فقالوا :

«انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا واحتتم على قتالنا وطال مقامكم في ارضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد آظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد احاط بكم هذا النيل وانما انتم اسارى فى ايدينا . فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا ان كان الأمر مخالفا لطلبكم » .(١)

ولكن عمراً لم يبعث جواب ما أرسلوا من أجله . وحبس الرسل عنده يومين حتى يروا حال المسلمين . وصرح لهم بالسير في معسكر المسلمين ، ثم بعث بكتاب مع الرسل الى المقوقس قال فيه « ليس بيني وبينكم إلا احدى ثلاث خصال . أما أن دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم مالنا ، وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٢٢٣ الترجمة العربية

صاغرون ، وأما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين »

على أن المقوقس ، قد خرج عند مارأى الرسل قد عادوا ، بعد حبسهم عنه ، مما جعله يظن أن عمراً قد قتلهم ، فلما لقيه الرسل سألهم عن حال القوم ، فقالوا « رأيناقوما الموت احب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى احدهم من الرفعه . ليس لاحدهم فى الدنيا رغبة ولاتهمة انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم . مايعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتلخف عنها منهم احد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » . وقد رأى قيرس أن القوم ـ وهذه نعوتهم . لاتصلح معهم المداورة ولاتقوى الروم لهؤلاء على المناجزة ، ولذلك أخذ يستعد لمصالحة العرب ، فارسل الى عمرو ان يبعث اليه جماعة من ذوى الرأى ليفاوضهم فى مسألة الصلح ، فبعث عمرو عشرة نفر ، أحدهم عباده من الصامت ـ وكان عبادة اسود شديد

السواد وأمره أن يتكلم عن القوم وان لا يجيب الروم عن شيء يدعونه اليه الا إحدى هذه الخصال الثلاث وذهب الرسل الى المقوقس ، فلما دخل عبادة عليه ، هابه وارتعدت فرائصه ، ثم قال : نحوا عني هذا الأسود ، وقدموا غيره يكلمني : فقال العرب جميعا « ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما . وهو سيدنا وخيرنا والمقدم فينا وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله ثم قالوا « أن الاسود والابيض سواء عندنا لا يفضل احدٌ أحداً إلا بالتقوى ، فقال المقوقس في كثير من الرهبة ـ لعبادة : تكلم برفق ولا تزعجني . فقال عبادة (رض) أن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا مني ، وإني ما أهاب مائة رجل من من عدوي لو استقبلوني جميعا ، وكذلك أصحابي . وذلك انما رغبتنا وهمتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه ـ وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيـــا ولا طلب للاستكثار منها ... لان غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها

يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها ... لان نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء . إنما النعيم والرخاء فى الآخرة »

وبهذا الكلام البين ، أثر عبادة فى نفس المقوقس ، فالتفت هذا لأصحابه وقال لهم :

« هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل ، إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض » ثم أقبل على عبادة فقال « أيها الرجل الصالح . قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم »

ومع أن هذا الكلام لم يكن غريبا فحسب من حاكم مسئول، لأعظم امبراطورية فى ذلك الوقت على مصر ، فانه — فى نفس الوقت — مدهش غاية الدهش ، بعد أن رأى قوة المسلمين لا فى الشام ، بل فى مصر نفسها ، ثم سمع عبادة يتكلم لا مبلغاً لرسالة فقط ، ولكن كداعية مبادىء وواعظ قوم لم تعظهم الأيام ، وندع عبادة (رض) يرد على هذا المقوقس المتغابى عن الحوادث ، بل عن الحق . قال عبادة رضى الله عنه :

« يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به . وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين أما أن تعظم لنا بذلك الغنيمة فى الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة

الآخرة إن ظفرتم بنا وأنها لاحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا وان الله عز وجل قال لنا فى كتابه : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه وأهله وولده وإنما همنا ما أمامنا فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيتها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله (ص م) من قبل الينا فحاول قيرس أن يستنزله عن شىء من الخصال الثلاث ، فلم يفلح ، فبين له عبادة أنهم لا يملكون التبديل والتعديل ، لانه وسائر المسلمين متبعون فى هذا لا مبتدعون ، ثم قال له وقد رفع يديه الى السماء لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شىء مالكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم»

ولما يئس المقوقس من طلب التعديل فى مقترحات المسلمين الآنفة الذكر ، دعا أصحابه الى التشاور على ضوء هذه المقترحات العربية . فقالوا : أما الأمر الاول — وهو اعتناق الاسلام — فلا نجيب اليه أبدا ، فلن نترك دين المسيح الى دين لا نعرفه ، وأما الثانى — وهو دفع الجزية — فانا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدا والموت خير من هذا ، فقال عبادة : أنكم إذا دفعتم الجزية كنتم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، وتركت لكم ادارة بلادكم ، فتصبح جميع الوظائف فى أيديكم ، كما ستحفظ لكم كنائسكم فلا يتعرض لها أحد بسوء .

ولما شرح لهم عبادة موقف العرب منهم بعد خضوعهم وقبولهم الجزية ، مالت نفس المقوقس الى المسالمة ، ودفع الجزية . ولكن كبار القوم نازعوا المقوقس ، ومالوا الى القتال . أو يهادنوا العرب مدة شهر ليروا رأيهم ، ولكن عمرا لم يقبل مهادنتهم أكثر من ثلاثة أيام وعليهم أن يقولوا كلمتهم خلالها وإلا فالمناجزة لا محالة

ومع أن المقوقس قبل الهدنة كما أراد عمرو ، إلا أن القوم وخصوصا جنود هرقل ، لم يستطيعوا الصبر على القتال فثاروا وتجهزوا للقاء العرب خارج الحصن ، وما جاء اليوم الرابع حتى باغتت الروم العرب من فوق قناطرهم .

ولكن العرب كانوا حذرين فلم تذهلهم المباغتة ، فاسرعوا الى أسلحتهم وأوقعوا بهم هزيمة منكرة ، وفر من نجا منهم وعاذ بالحصن ، وأغلقوا على أنفسهم الابواب أما المقوقس ، فانه وجد في هزيمة الروم تعزيزاً لرأيه في قبول الصلح ، فدعا كبار قومه مرة أخرى على أثر الهزيمة وعرض عليهم ما أبوه عليه بالأمس فوافقوا مكرهين ، فاسرع المقوقس عند ذلك الى النهر وعبر الى الجانب الغربي حيث العرب وعلى رأسهم داهيتهم عمرو بن العاص ، فلقيه وأبرم معه شروط الصلح على أن يدفع الروم الجزية عن يدوهم صاغرون ، وبعد إبرام هذه الشروط سافر المقوقس الى الاسكندرية حيث أرسل صك المعاهدة العربية المصرية الى الامبراطور في بيزنطـــة ، وبها ملحق خاص بين

فيه الأعذار التي ألجأته إلى إبرامها . بيد أن الامبراطور لم يتبين — على ما يقال — كنه هذه المعاهدة وهل هي تسليم لبابليون وحده أم تسليم لوادي النيل كله ، ولذلك بعث برسالة مستعجلة الى قيرس يستدعيه فوراً الى القسطنطينية لمقابلته .

وصل قيرس إلى حضرة الامبراطور ، وقص عليه قصة الحرب بينه وبين العرب ، وقد عقب على ذلك بتبرئة ساحته من وصمة الجبن والخيانة ، ثم كرر للامبراطور عزمه على طرد العرب يوماً ما وأن كل ما فعله إجراء وقتي أملته الظروف القاهرة .

وأما الأموال التي دفعها قيرس إلى العرب في شكل جزية ، فانه من السهل عليه أن يجبي مقدارها وأكثر من متاجر الاسكندرية وجاركها فيعوض ذلك ما خسرته خزانة الامبراطورية ، من مال مصر الذي كان كل غايتها من احتلالها .

على أن قيرس ، لم يخف عن الامبراطور ما لمسه في

العرب من غرابة وشدة بأس لم يعهدها فى غيرهم من سائر ألوان البشر ، فهم كما أبانوا أنفسهم ، قوم لا يعبأون بأمر من أمور الحياة ولا زخارفها ، ولا يطلبون منها إلا لقمة يسدون بها الرمق وشملة يسترون بها العورة . إنهم قوم « الموت » الموعودون بملك الدنيا

وبمثل هذه الاقوال كان المقوقس يتحدث الى مولاه امبراطور الغرب العظيم وحامى المسيحية فى الشرق والغرب

على أن المهم أن الحصن لم يفك عنه الحصار بعد . فقد كان قيرس قد رضى بشروط العرب ووعد بأن يوقفها من الامبراطور ثم بعد ذلك يخرج لحضور جيوش الروم من الحصن الى حيث يذهبون إلى آسيا الصغرى .

ثم لما ذهب قيرس الى الامبراطور وعرض عليه الحالة وطلب منه الموافقة على معاهدة سنة ٦٤٠ — ٦٤١م لم يقبل الامبراطور وبذلك أصبح قيرس فى موقف حرج بين العرب وبين الروم .

وبلغت أخبار قيرس فى بيزنطة مسامع العرب ،

فاستعدوا لفتح الحصن بالقوة وكان النهر قد انخفضت مياهه مما أصبح من العسير معه أن يحصل الروم الذين فى الحصن على حاجتهم من الماء العذب الصالح ، فكان يخرج منهم جماعات ليتزودوا بحاجاتهم من ماء النيل ، فيتعرض لهم العرب ويقتتل الفريقان فتكون الدبرة طبعا على هؤلاء الروم المحصورين ، وقد ظلت الحال كذلك فترة غير قصيرة . الروم محصورون فى الحصن لا يخرجون إلا فى غفلة العرب والعرب يوقعون بكل جماعة تخرج من الروم . ولقد عميت أخبار فيرس عن أهل الحصن ، وكل ما بلغهم أن الامبراطور قد غضب على حاكمهم ، ولكنه لم يصنع شيئاً لانقاذهم من الحصار .

وفى مارس من سنة ٦٤١ م سمع أهل الحصن تكبيرا عاليا فى معسكر المسلمين على الضفة الاخرى للنهر ، فلما استطلعوا الأمر علموا أن الأمبراطور هرقل قد فارق الحياة . ولكن الحصن رغم الكارثة التى حلت بعميد المسيحية والامبراطورية ، ظل حوالى الشهر يقاوم جند العرب

وحينئذ صمم المسلمون على فتح الحصن ولو كان فى ذلك ذهاب نفوسهم ، فقام الزبير ابن العوام ، ونادى في الناس من يهب نفسه فى سبيل الله ،فتبعه كثير من المسلمين واتجهوا نحو الحصن ، وسارع الزبير فوضع سلما على السور ولم يفطن اليه أحد ، حتى صعد سور الحصن وكبر شارعا سيفه ، وتبعه المسلمون الذين تسلقوا خلفه ، وأمطر الجميع من فى داخل الحصن وابلا من سهامهم .

وعند ذلك اجتمع كبار القوم وعرضوا الصلح بدل سفك الدماء ، وتولى ابرام العقد جورج ـ وهو القائد الاعلى للروم ـ مع القائد العربى عمرو بن العاص ، الذى اشترط على جورج أن يغادر جنوده بابليون فى مدى أيام ثلاثة فقط وأن يتخذوا سبيلهم فى الجلاء نهر النيل ،وان لا يحمل الجيش الرومانى معه سوى مايلزمه من الاقوات لبضعة أيام وأما الذخائر والاسلحة وجميع مافى الحصن فيصبح غنيمة للمسلمين وأن يدفع بابليون الجزية للمسلمين .

وكان فتح الحصن فى يوم الجمعة (٦ من ابريل سنة ٦٤١)

وكان خروج الروم منه يوم الاثنين ٩ منه وهو عيد الفصح عند المسيحيين ، وقد ظل الحصن يقاوم قرابة سبعة أشهر فى أصح الروايات [١] .

وبعد ان جلا الروم عن الحصن ، وملكه العرب أصبحت بابليون وما جاورها تحت قبضة المسلمين . وبذلك دان لهم معظم وادى النيل ، ولقد أمر عمرو بعقد جسر بين الروضة وبابليون فوصل بذلك الجزيرة بالحصن .

هذا وبعد تسليم الحصن أخذ عمرو فى ارسال السرايا لفتح البلاد فى الوجهين القبلى والبحرى حتى أخضعها فى فترة قصيرة ، وبذلك لم يكن امامه ألا الاسكندرية ، وهى العاصمة الكبرى للدولة المصرية ، والعاصمة الثانية للدولة الرومانية الشرقية ، وقد رأى أن لا بد له من فتحها وطرد الروم منها ، والا فانه لم يضنع شيئا لان مركز الحكومة لايزال فى قبضة الروم .

---

(١) فتح العرب ص ٢٤٠

ولم يكن الصلح الذى عقد فى بابليون سوى عقد حربى على من فى الحصن ، فأمنهم عمرو نظير تركهم لكل ما يملكون ، وفرض الجزية على أهل البلاد

ولكن هذا الصلح أحدث فى دولة الروم أثرا بعيد المدى . مع انه لم يكن الا صلحا مقصورا على جماعة صغيرة وذلك لمكانة بابليون وممفيس فى نفوس الروم ، مما جعل هؤلاء يداخلهم الضعف والوهن أمام العرب. اذ بمجرد أن يحسوا بسيرهم نحو الاسكندرية نرى حامياتهم فى (نقيوس) بمصر السفلى - وهى من أعظم المدن التى ركزت بها جيوش هائله - نرى الروم على رأسهم قائدهم يفرون الى الاسكندرية وهكذا فى سائر المدن الواقعة بين بابليون[1] والاسكندرية لم يصادف العرب فى واحدة منها مقاومة تستحق الذكر سوى « كريون » العنيدة أما فى الاسكندرية ، فقد استعد الروم بجيش جرار بلغ حوالى ٥٠ خمسين الف مقاتل عدا

---

(١) انظر بتلر ص ٢٥٠ - ٢٥٤ فى فتح العرب لمصر

الامداد التي توالى ارسالها من بيزنطه الى الاسكندرية ، كما أن أسوار المدينة كان لها كبير الاثر فى صد العرب عنها في أول الامر .

بيد أن العرب ضربوا الحصار على المدينة ، من جهة البر ، وقد استمر حوالى أربعة أشهر نظرا لاتصال المدينة بالقسطنطينية من جهة البحر ، فكانت تصل اليها حاجتها من الاسلحة والاقوات .

ولكن موت هرقل ، وضعف الروم بعد موته ، واضطراب دولتهم ، ثم كره أهل الاسكندرية للحكم الروماني ومساعدة بطريقها للعرب رغبة في استقلاله عن الدولة الرومانية البيزنطية . كل ذلك ساعد العرب على أن يفتحوا الاسكندرية ، ويطردوا الرومان منها وكان ذلك فى سنة ٦٤١ م . وبفتح الاسكندرية أصبح العرب يحكمون جميع أراضى النيل ومدنه ، لاينازعهم فى ذلك أحد .

أما التغييرات التى أحدثها العرب بعد فتح مصر فمن أهمها أولا : نقل العاصمة من الاسكندرية الى النقطة التى

عسكروا بها أولا فى بابليون فبنوا مدينة «الفسطاط» وجعلوها مركز الحكومة للدولة المصريه الاسلامية . وقد اختار العرب هذا الموقع لتكون العاصمة متوسطة بين الوجهين البحرى والقبلى لمصر . ثم لقرب العاصمة الجديدة للبلاد العربية ومركز الخلافة ، وقد سارع عمرو بحفر القناة التى تفصل النيل بالبحر الاحمر ، فسارت السفن من مصر الى الحجاز .

ثانيا ـ انضمام كثير من سكان مصر الى العرب اذ اعتنقوا الاسلام وأصبحت مصر من ذلك الوقت مركزا هاما فى العالم الاسلامى وقل عدد الاسر المسيحية فيها .

ثالثا ـ أعاد العرب حفر الترع والجداول التى تركها الرومان . وأصلحوا طرق المواصلات فتحسنت حال الفلاحين وتدرجوا فى الرخاء والرقى .

كذلك أطلق العرب الحرية الدينية من عقالها وأصبح الملكانيون واليعقوبيون يدعون لمذاهبهم في حرية مطلقة بدون تدخل من جانب الحكومة ، كما أن الحكومة المدنية ظلت بدون تغيير يذكر . وبقى الموظفون المدنيون من

الروم والقبط فى مرا كزهم ، وكل وظيفة خلت حل فيها مصرى ؛ وا كتفى العرب بالاشراف على الحكومة .

أما الضرائب ؛ فقد خففت الى الحد الذى لايرهق كاهل المصريين وبالجملة ، فان حالة المصريين تحسنت بوجه عام وأحسوا بعدل العرب وظلم الرومان : فقد كان الرومان يجبون من المصريين سنويا حوالى ٢٠ مليونا ؛ فأصبح العرب لايجبون سوي ١٢ مليونا . والاهم من هذا أن المدن والافراد الذين كانت لهم امتيازات فى عهد الرومان ، أبطلها العرب ، وعاملوا المصريين جميعا على قدم المساواة

مكتبه الاسكندريه

ومما ينبغى ذكره هنا مايقال من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية ، وأعدم كثيرا من كتب العلم التى ظلت زمنا تضىء للعالم سبل الفكر والعقل ، وتشع النور في المدارس والجامعات .

وأنا مع حبنا للحق ، واحترامنا للجميع ، ليجب أن تصرح في حزم أن هذه فرية مافيها مرية ، وأن التاريخ يكذب ذلك بكل قوة . لان عمرا ليس الرجل الذى يقدم

على مثل هذا ، اذ دينه وخلقه يبعدانه عن مثل هذا الجرم ثم أن العرب الذين ثبت أنهم احترموا الاديان التي يعتقدون كفر اتباعها . يبعد منهم صدور هذا ومع هذا فاننا نرى أن ننقل لكم بالنص ماسجله مؤرخ انجليزى . اذ يقول ماترجمته « لقد كثر الجدل فى أمر مكتبة الاسكندرية العظمى وطالما احتدم الخلاف فى شأن احراقها وهل كان للعرب يد فى ذلك عند فتحهم للمدينة أم أنهم لم يقارفوا شيئا من ذلك :

والقصة كما أوردها أبو الفرج كما يلى : قد كان فى ذلك الوقت رجل اشتهر بين المسلمين اسمه « حنا الاجروى » وكان من أهل الاسكندريه وظاهر من وصفه أنه كان من قسيسى القبط ولكنه أخرج من عمله اذ نسب اليه زيغ فى عقيدته وكان عزله على مجمع من الاساقفة وقد ادرك ذلك الرجل فتح العرب للاسكندرية واتصل بعمرو فلقى عنده حظوة لما توسم فيه بصفاء ذهنه وقوة عقله من الذكاء . وعجب مما وجد عنده من غزارة العلم فلما آنس الرجل من عمرو ذلك الاقبال قال له يوما « لقد رأيت المدينة

كلها وختمت على مافيها من التحف ولست أطلب اليك الا شيئا لا نفع له عندك وهو عندنا نافع » فقال له عمرو « وماذا تعنى بقولك » فقال (أعنى بقولى مافي خزائن الروم من كتب الحكمة) فقال له عمرو (إن ذلك أمر ليس لى أن أقتطع فيه رأيا دون اذن الخليفة) ثم أرسل كتابا الى عمر يسأله فى الامر فاجابه عمر قائلا (وأما ماذكرت من أمر الكتب : فاذا كان ماجاء بها يوافق ماجاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه وأحرقها (فلما جاء هذا الكتاب الى عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الاسكندرية فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر ثم قال المؤلف (فاسمع وتعجب) .

هذه هى القصة كما جاءت فى الكتب العربية ، وقد كتب أبو الفرج ما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ولم يذكر المورد الذى نقل عنه قصته ثم نقله عنه أبو الفداء فى أوائل القرن الرابع عشر ثم المقريزى بعد ذلك . لاغرو قد ذكر عبد اللطيف البغدادى احراق مكتبة

الاسكندرية بأمر عمر حوالى سنة ١٢٠٠ ولكنه لم يبد رأيا فيها مما يشعر بأنه كان مصدقا لها . ولعلها كانت متداولة حينئذ ، ولكن لم يرد لها ذكر مكتوب قبل مضى خمسة قرون ونصف قرن على فتح الاسكندرية (١)

ثم يستعرض الدكتور بتلر ، ظروف القصة وروايتها ، وظروف المكتبة والاطوار التى مرت بها ، وينقل نصوص التاريخ المعاصر فى حرق المكتبة والزمن الذى حدث فيه ثم ينتهى بعد ذلك العرض المتتبع إلى أن العرب لم يقترفوا حرق المكتبة ، ويستدل على ذلك بهذه الامور .

أولا : أن قصة احراق العرب المكتبة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسة قرون من فتح الاسكندرية .

ثانيا : أننا فحصنا القصة وحللناها فوجدنا كل ماجاء بها سخافات مستبعدة ينكرها العقل .

---

(١) انظر فتح العرب لمصر ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ ترجمة فريد أبو حديد . طبعة دار الكتب الملكية .

ثالثا : أن الرجل (حنا الاجرومى) الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزوة العرب بزمن طويل

رابعا : أن القصة قد تشير الى وحدة من مكتبتين . الاولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذي أحدثه قيصر ، وان لم تكن قد اتلفت عند ذلك فانها تكون قد ضاعت قبل فتح العرب للاسكندرية بما لايقل عن أربعمائة عام وأما المكتبه الثانية وهى مكتبة السرابيوم فاما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ م وإما أن تكون قد هلكت وضاعت كتبها ، فتكون على أى حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن .

خامسا : ان كتاب القرنين الخامس والسادس الميلاديين لايذكرون شيئا عن وجودها وكذلك كتاب أوائل القرن السابع .

سادسا . أن هذه المكتبة لو كانت لاتزال باقية عند ماعقد (قيرس) صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية لكان من المؤكد أن ينص على نقل الكتب الى جانب المتاع

والاموال فى مدة الهدنة التى بين عقد الصلح ودخول العرب فى المدينة وقدر ذلك أحد عشر شهرا .

سابعا . لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت أو لو كان العرب قد اتلفوها حقيقة لما اغفل ذلك كانت من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل رضا التقيوسى) ولما سر ذلك عليه بدون كتابة حرف منه ولا يبقى بعد ذلك شك فى الامر . فان الادلة قاطعة ، كما أيد ذلك ثقات المؤرخين ورواية أبى الفرج على هذا لاتعدو ان تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس في التاريخ (١)

واذ كان فتح الاسكندرية ، وتسليمها الى العرب ، قد تم بطريق الصلح الذى حمله قيرس من القسطنطينية الى عمرو قائد الجيش العربى ، فاننا نؤثر أن ننقل هنا نص معاهدة الصلح كما سجلها الدكتور بتلر فى كتابه (فتح العرب مصر)

---

(١) راجع فتح العرب ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠ فى الفصل الخاص بالمكتبة (الترجمة العربية) .

وقد سجل لنا أيضا محضر مقابلة المقوقس لعمرو بعد غياب طويل فى منفاه الشاق الذى لقيه بسبب مهادنته للعرب فى عهد هرقل ، بالامس الدابر . يقول فى ذلك :

كان القائد العربى قد عاد الى بابليون بعد أن فتح بلاد الصعيد أو على الاقل بلاد مصر الوسطى ، كيما يستريح باصحابه فى أوان فيضان النيل . وفيما كان هناك فى ذلك الحصن ، وافاه (قيرس) . وقد جاء يحمل عقد الاذعان والتسليم . فرحب به عمرو وأكرم وفادته . ولما علم منه ماجاء من أجله من أمر الصلح قال له (لقد أحسنت فى الشخوص الينا) فقال البطريق . ان الناس قد عولوا على دفع الجزية ، كيما تقف رحى الحرب ثم قال (أن الله قد أعطاكم هذه الارض فلا تدخلوا بعد اليوم فى حرب مع الروم[1]

ويقال أن مفاوضة قيرس مع عمرو استطالت مدة طويلة ، ثم انتهت الى صلح كتب به عقد فى نوفمبر

---

(١) ص ٢٧٧

من سنة ٦٤١ م ، ويسمى هذا الصلح بصلح الاسكندرية تمييزا له كما أسلفنا عن صلح بابليون وهاهى ذى شروط الصلح كما أرتضاها ثقات المؤرخين :

(١) أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

(٢) أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرا تنتهى فى أول شهر بابة القبطى للثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ م .

(٣) أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الاسكندرية وأن يكف الروم عن القتال .

(٤) أن تسير حامية الاسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها . على أن من أراد الرحيل من جانب البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزاء معلوما مابقى فى أرض مصر فى رحلته .

(٥) أن لايعود جيشه من الروم الى مصر أو يسعى لردها .

(٦) أن تترك الكنائس للمسيحيين ، ولا يتدخل المسلمون فى شئونها بأى لون من التدخل .

(٧) أن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية .

(٨) أن يبعث الروم رهائن من قبلهم الى العرب كضمان لانفاذ عقد الصلح وحددت الرهائن بمائة وخمسين رجلا من غير الجند .

وبعد ابرام هذا العقد أخذ الروم يغادرون المدينة (الاسكندرية) وهم يضمرون الغدر ونقض العهد .فقد عادوا بعد ثلاث سنين تقريبا ، وأخرجوا العرب من الاسكندرية ولكن هؤلاء استطاعوا أن يهزموهم ويعيدوهم الى بيزنطة مرة أخرى .

وبهذا كان الخلاف فى تقدير فتح المسلمين لمصر وهل كان صلحا أم عنوة بطريق القتال والمناجزة .ولعل فى الالمامة الموجزة التى سقناها مايوضح المسئلة على حقيقتها ، فقد كان الفتح فى أول الامر عنوة مع اعطاء عهد حربى بالامان لمن تعاقد معهم العرب فى بابليون ، ثم كان عهد الاسكندرية ،

فاجرى فتح مصر مجرى الصلح ، ثم لما أغار الروم وملكوا الاسكندرية ونقضوا العهد الذى بينهم وبين المسلمين نبذ هؤلاء اليهم على سواء وأجروا فتح مصر مجري البلاد التى أخذت بقوة السلاح .

على أننا نجد فرقا ظاهرا بين حكام مصر من الروم ، وبين أهالى مصر من القبط المسيحيين ، فهؤلاء - فى الواقع - لم يكونوا أبدا أعداء للعرب ، وانما كانوا يتربصون بالروم الذين لم يخلصوا لهم وخصوصا فى الوقت الذى دخل فيه العرب فاتحين لاضطهادات الروم لهؤلاء القبط بسبب عدم اتفاقهم معهم فى المذهب الدينى .

فكانت معاملة الاهالى تختلف فى نظر العرب ، عن معاملة الروم إلا من دخل من هؤلاء فى عقدهم ووفى لهم ، فالذمة له مرعية مبذولة ، ولعل الطبرى يوضح لنا هذا المسلك من قائد العرب نحو القبط سكان مصر فى تلك المعاهدة أو عقد الامان الذى أورده إذ يقول :

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان

على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لايدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوبة . وعلى أهل مصر أن يدفعوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين الف الف وعليهم ماجنى لصوصهم ، فان أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة . وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهي رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم ، ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا ، عليهم ماعليهم اثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم ، على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا أن يمينوا بكذا وكذا فرسا على أن لايغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . وشهد عليه الزبير وعبد الله ومحمد ابناه ، وكتب وردان وحضر [1]

---

(١) تاريخ الامم والملوك لابن جرير الطبرى . والكامل فى التاريخ لابن الاثير جـ٢ ص ٣٩٦

ثم إلى جانب عقد الامان السلف برواية الطبرى ، يلخص المقريزى [١] لنا عقداً ما بذله العرب للقبط من أهالى مصر ، فى ستة مواد هى بعد الديباجة كما يلى :

(١) أن لا يخرجوا من ديارهم

(٢) أن لا يفرق بينهم وبين أزواجهم

(٣) أن لا يطردوا من قراهم

(٤) أن لا تنزع منهم أرضهم

(٥) أن لا تزاد عليهم الجزيه

(٦) أن يمنعوا من عدوهم

والمهم أن فتح مصر لم يكن كله عنوة ولا كله صلحا ، بل ينبغى التفرقة بين الحكام الذين قاتلوا العرب ، ونقضوا عهدهم معهم ، وبين الاهالى المسالمين ، فهؤلاء لهم عهد وذمة ، وأولئك لا عهد لهم ولا ذمة ، وقد جعل عمر لهم ذمة ، حتى إنه لما أراد عبد الله ابن سعد بن أبى سمره أن يأخذ أرضاً

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٢٩٤

من مصر دفع ثمنها ، لان البلاد كانت لها ذمة محترمة إذ لم تناصب المسلمين العداء أما الذين ناجزوا العرب فقد طردوا من البلاد ولم يبق لهم أثر بعد ، كما أبنا آنفا

بنطابولس والسواحل .

بعد أن تم فتح مصر ، سارع عمرو إلى إرسال الراية إلى البلاد المجاورة فأخضعها لحكم العرب وبذلك جعل جميع سواحل البحرين الاحمر والابيض تديره بالولاء لحكم الفسطاط وتابعة لدار الخلافة فى المدينة

ولما كان عمرو ميالا بطبعه إلى الحرب والنضال ،راغباً فى بسط سيادة الاسلام على كل مايمكن أن تصل اليه جيوش العرب ، فانه عدل على أن يرسل بعثاً إلى بنطابولس وهو الاقليم الذى يلى مصر غربا من بلاد الدولة الرومانية . وإذ كان عمرو قد وطد نظم الحكم فى مدة شهور الهدنة الاحد عشر . حتى إذا ماانقضت تلك الهدنة ودخل العرب الاسكندرية لم يبق عليه إلا أن يقيم المدينة وحدها نظامها وقد أرسل عمرو فرقة مجهزة سارت غربا حتى وصلت إلى

برقة فاستولى عليها ، وضمها إلى مصر ، وسار بعد ذلك نحو طرابلس فاستطاع أن يهزم الروم بها بعد حصارهم فترة من الزمن .

كذلك فتح عمرو مدينة (سبرة) التي تعرف الآن بزراوة ، بدون خسارة تذكر ، وفي سبرة توقف عمرو ، ثم عاد إلى برقه حيث جاءته قبيلة (لواته) وقدمت له فروض الطاعة ، ثم عاد بجيشه إلى مصر وفي ركابه عدد لايحصى من الاسرى والغنائم

ولنا عودة إلى شمالي أفريقيا في عهد عثمان ومن تلاه من أمراء المؤمنين حيث امتدت الفتوحات إلى بحر الظلمات (المحيط الاطلانطي) ثم عبرت خليج الزقاق (بوغاز جبل طارق) فتأسست في أسبانيا دولة اسلامية . إن شاء الله على إننا لا نحب أن نغادر هذا المكان من مفاخر العرب ، بدون أن نسجل وصف عمرو مصر لامير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقد طلب عمر هذا الوصف ، فأجابه عمر هذا

« اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر قرية غبراء وشجرة

خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل اغبر ورحل أعفر يخط وسطها نيل مبارك الفدوات ميمون الروحات تجرى فيه الزيادة والفيضان كجرى الشمس والقمر له اوان يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه تمده عيون الارض ومنابعها حتى إذا اضلغم عجاجه وتعظمت امواجه فاض على جانبيه بحكم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب وضفاف القوارب وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الاصائل . فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول مابدا فى جريته وطما فى درته . فعند ذلك تخرج أهل ملة مخفورة وذمة مخفورة يحرثون بطن الارض ويبذرون بها الحب يرجون بذلك النماء من الرب لغيرهم ماسموا من كدهم . فناله منهم بغير جدهم فاذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء فاذا هى زمردة خضراء فاذا هى ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء . الذى يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها ألا يقبل قول خيسها فى

رئيسها وإلا يستادى خراج ثمرة إلا فى أوانها وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل (١) »

ومن مآثر عمرو رضى الله عنه إبطاله عادة إغراق فتاة النيل التى اعتاد المصريون أن يقدموها اليه كل موسم زعم تنصر القبط وإيمانهم بالمسيح . ولكن حينما كان الفتح الاسلامى وجد هذه العادة فأبطلها وأزالها ، وان كان الدكتور بتلر ينكر وجودها وقت الفتح العربى لمصر المسيحية . وهو قول يعزوه حسن الظن باخوانه أكثر من أى شىء آخر فى رأينا (١)

---

(١) أنظر فتح العرب لمصر
(٢) أنظر نفس المصدر السابق

حروب عثمان

من هو عثمان :

كنا فى تعريفنا بالخليفتين السابقين توجز جملة عن كل منهما لتعطى فكرة عن الوجه لهذه الحروب ، وكانت الدولة موحدة فى الدين والسياسة وظلت كذلك طوال عهد أبى بكر وعمر ثم تولى عثمان خلافة المسلمين ، وظل صدراً من ولايته يسير قدما فى الطريق القاصد لسلفيه العظيمين والدولة الاسلامية تتبعه لا يشذ منها شاذ

ولكن بعد ستة أعوام من خلافته شرع دعاة مغرضون يدفعون بالدولة فى اتون ملتهب من العداوة والبغضاء حتى أوجدوا الانقسام في الامة ووضعوا الفرقة بين أسرها ورجالها

ولذلك فانا سنحاول فى حديثنا عن هذا الرجل الوديع الحيي (رض) أن نسهب بعض الشيء فى تبيان حالة الدولة

فى عهده الاخير ، بعد أن تجمل الحديث عنه وعن حروبه الخارجية :

ترجمة عثمان : هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ابن عبد شمس بن عبدمناف فهو أموى قرشى . وأمه قرشية كذلك ، ولد فى السنة الخامسة من ميلاد الرسول وشب على مكارم الاخلاق ، وكان مشهوراً بالحياء الجم ، والعفة التى لا تضاهي .

أسلم على يد أبي بكر الصديق فى سنى الدعوة السرية ، وتزوج ابنتى الرسول ، رقية وأم كلثوم وهاجر الهجرتين ، الحبشة والمدينة . وحضر جميع المشاهد عدا بدرا التى عاقه عنها تمريضه لزوجته المشرفة على الموت . وسفر بين المسلمين والمشركين في عمرة الحديبية . ومن أجله بايع الرسول صحبه بيعة الرضوان . أسهم فى تبوك بقدر من المال لم يستطعه سواه ، ووضع نفسه وماله ونفوذه تحت تصرف دينه ورسوله

كتب لأبى بكر وعمر ، وكان من كبار الشوري في زمن الرسول وصاحبيه . ثم بعد أن طعن عمر اتفقت أغلبية

الشورى على انتخابه خليفة بعده فساس الدولة خير سياسة فى أيامه الاولى ، ثم ابتلى بالفتن والدعاوى التى نفثت أباطيلها فى الامصار ، إلى جانب أقاربه من بنى أمية الذين زينوا له حسن تقديمهم على المهاجرين والانصار وأنه صلة منه لارحامهم ، فكانت العاقبة ماتتلوا عليك بعد فى موضعه :

حروبه الخارجية :

بعد أن بلغ المد الاسلامى غاية فى مايعدها غاية عهد عمر. إذ أزال الامبراطورية الفارسية من لوحة الوجود وضم أملاكها إلى الخلافة ، وطرد الرومان من الشام وفلسطين ومصر وطرابلس وبرقه ، وقسمت هذه الاقطار إلى ولايات على كل منها أمير يأتمر بأمر المدينة ، لم يكن حين تولى عثمان شىء من النضال بين المسلمين ومجاوريهم يستحق أن يطلق عليه مواقع مهمة ، بل كل ماحدث إنما هو أما إخضاع لاقليم يحاول الانتقاض ، وأما توسع فى أنحاء صغيرة متاخمة

ولهذا فاننا سنذكر أهم الولايات التى قام أمراؤها ببعض الحركات الحربية فى عصر عثمان :

الكوفة : ومن أهم الولايات التى كانت لها حروب ، ولاية الكوفة وقد كان ميدانها فى الرى وأذربيجان ، وكان بالكوفة أربعون ألف جندى مسلحين ، وقد رابط منهم عشرة آلاف بالرى ، ومثلهم باذربيجان بعد فتحهما . وقد انتقضت أذربيجان فى أمارة الوليد بن عقبة للكوفة ، فأخضعها لحكم المسلمين

وحدث أن أرادت أرمينية أن تخرج على الخلافة فمنعت الجزية والخراج فأرسل اليها الوليد ، أحد قواده سلمان بن ربيعة الباهلى ، فأعادها إلى الطاعة

وفى أمارة سعيد بن العاص على ولاية الكوفة ، تم فتح طبرستان . سار اليها بجيش كبير شمل بعض أبناء المهاجرين والانصار ومنهم الحسن والحسين أبنا على ، والعبادلة

أبناء عمر وعمرو والعباس والزبير، وحذيفة بن اليمان ،وغيرهم وقد صالح سعيد أهل طبرستان

وحوالى سنة ٣٢ هـ وصل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى إلى بحر الخزر (قزوين) حيث استولى على أقليم يلنجر جنوبى البحر .

ولكن الترك الضاربين حول البحر اجتمعوا وهجموا على جيش المسلمين وأوقعوا به هزيمة شديدة ألجأت بعضهم إلى الفرار إلى جرجان وجيلان ، والبعض الآخر ارتد جنوبا ووصل إلى أملاك الدولة الاسلامية

البصرة : أما البصرة فكانت لا تقل عن الكوفة أثراً في الفتح والتوسع ، وكانت مغازيها فى بلادفارس وخراسان وثغر السند والاقاليم المتاخمة لاملاكها ففى عهد عبد الله ابن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار اليهم ابن عامر وأوقع بهم هزيمة منكرة

وفى عهد ابن عامر قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس قتله بعض أتباعه كما أسلفنا

وحوالى سنة ٣١ عصى أهل خراسان ، فسار اليهم أمير البصرة فى جيش كثيف فما كاد يشرف على الطبسين حتى تلقاه أهلها طالبين الصلح فأجابهم :

أما أهل قهستان فقد قاتلوا ودافعوا عن بلادهم ، ولكن كرات المسلمين كانت شديدة ، فطلب القهستانيون الصلح فصالحهم ابن عامر . وكذلك حذت نيسابور حذو طبس الاولى ، فعرضت الصلح بدون قتال

ومن أشهر قواد البصرة الاحنف بن قيس ، فقد فتح هذا الرجل بجيشه مدن طخارستا ومرو الروذ ، وصالح أهل بلخ وأخضعهم ، ولم تمتنع عنه سوى خوارزم من تلك الجهات الفارسية .

وقد عاد عبد الله بن عامر بعد أن ظفر بهذه الفتوح إلى ولايته (البصرة)

الشام : أما الشام ، فقد جمعت لمعاوية بن أبى سفيان ، فأصبح قائد أجنادها جميعاً وكانت له غزوات مع الروم ، فى البر والبحر ، وقد وصل معاوية إلى عمورية وأسكن

الحصون التى بين الشام وبين عمورية جماعة من الجند كمسالح تحميها من هجمات الروم ، وتحمى الحدود أيضاً من الاعداء

وقد امتدت فتوحات معاوية إلى أقصى بلاد أرمينية من الشرق حيث أرسل قائده حبيب بن مسلمة فبلغ قاليقلا فى أرمينيه فأخضعها وصالح أهلها ثم استمر فى فتوحه إلى تفليس جهة باب الابواب جنوب غربى الخزر

وحوالى سنة ٢٨ هـ فتح معاوية جزيرة قبرص ، وهى من الغزوات البحرية الناجحة التى جعلت المسلمين يفكرون جديا فى مواصلة هذا اللون من النضال البحرى المفيد مما مكن لهم فى تجهيز الاساطيل العظيمة فيما بعد ، ففتحوا معظم الجزر فى بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) وصيروه بحيرة إسلامية

مصر : وأما فى الفسطاط . فقد كان أميرها إلى أوائل خلافة عثمان ، عمرو بن العاص ، وقد أسلفنا فتحه الاسكندرية صلحا ، والآن فى سنة ٢٥ هـ أى بعد ثلاث أو أربع سنوات نقض الروم الصلح وأغاروا على الاسكندرية ، فسار اليها

عمرو وهدم أسوارها وأوقع بالروم شر هزيمة ، وغنم كثيراً من مراكب الاسطول الرومانى

وقد أراد عمرو أن يمد رقعة ولايته فى المغرب ، فأعد جيشا بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، وسيره إلى سواحل أفريقية الشمالية ، وقد سار عبد الله وفتح فى طريقه كثيراً من المدن ، بعد طرابلس غربا وقد عاد بعد أن غنم حوالى المليونين ونصف المليون دينارا

وفي أمارة عبد الله بن سعد على مصر ، أغار الروم على مصر من الشرق ، فقابلتم أساطيل المسلمين من الشام ومصر ، وأوقعت بالروم هزيمة ساحقة سميت فيما بعد بذات الصوارى

وأهم ما يمتاز به عهد عثمان (رض) أن أصبح للمسلمين فيه أسطول بحرى قوى ، ومهر المسلمون في الحرب البحرية ، بعد أن كانوا يهابون البحر وركوبه فضلا عن القتال فيه

ونجتزىء بهذا القدر من الفتوحات العثمانية ، لنتحدث عن أهم النتائج التى أسفرت عنها هذه الحروب .

أهم نتائج هذه الحروب :

قد يخطىء من يظن أن حروب العرب فى صدر الاسلام ، إنما كانت لغرض الفتح والتوسع ، للاستعمار أو المال والنفوذ ، وإرغام الدنيا على اعتناق مبادىء الاسلام كرها أذابوها طوعا . ولذلك فان مهمة المؤرخ النزيه من أشق المهام ، ولا سيما حين يعرض لبحث نتائج حروب تعتبر فى زمننا الحاضر خاطفة . فقد استطاع هؤلاء العرب أن يفتحوا الدنيا المعروفة حينئذ فى أقل من جيل ، ومن الغريب أن تتركز هذه الفتوحات وتظل تشهد لهؤلاء الغزاة بالعبقرية والنضوج فى الحرب وسياسة الشعوب ، بل فى التعمير والانشاء ، وطرق الحكم والادارة ، مما جعل البلاد التى حلوها فاتحين تخضع لحكمهم ، لا كخضوع البلاد المحتلة اليوم ، بل طاعة الراضى المطمئن لأمثل إدارة شرعها الانسان لأخيه الانسان . فما هى الحوافز لهؤلاء العرب المسلمين إلى تملك بلاد الامم ، وما هى النتائج الحقيقية التى أثمرتها تلك الحروب على أن المتتبع لتاريخ المسلمين ، وكيف ظلوا زمنا

— فى بدء الدعوة — لا يستطيعون الجهر بمبادئهم ، ولا عبادة ربهم ، إلا سراً وخفية من الناس ، حتى إذا ما أحس العالم بدينهم طاردهم وتآمر عليهم ، وأعلن حرباً إجماعية على نبيهم ، فهؤلاء سادة العرب وعلى رأسهم قريش ، قد بيتوا أمرهم على قتل الرسول وتشريد صحبه المسلمين :

وهذا امبراطور فارس يرسل اليه نبى الاسلام ورئيس الدولة الاسلامية محمد بن عبد الله ، كتاباً يفيض رقة وعذوبة ، ويخلص له النصح وسبل الهداية ، فيجيبه بتمزيق الكتاب الكريم ، ويرسل إلى أحد عماله بان ينكل برسله ، ويستأصل أتباعه حتى لا يبقى فى الجزيرة من يقول لا إله إلا الله

وهذا امبراطور الروم يقف من المسلمين موقف العداء السافر ، فيمين المتمردين فى مشارف الشام على المسلمين ويمدهم بالاسلحة والعتاد ، ويحارب العرب بالعرب ، وغير هؤلاء ممن حاربهم المسلمون لو فتشنا عنهم من التاريخ الصحيح لوجدناهم جميعاً قد بدءوا بالعداء ، وحاولوا الوقوف فى سبيل المبادىء الاسلامية ، التى لم تكن إلا دعوة التحرير

والمساواة ، وشريعة الاصلاح المنتظر لشتى مناحى الحياة

ونرى من هذه الالمامة البسيطة ، أن الحروب الاسلامية فى عهد النبى وخلفائه الراشدين ، ترجع جملة الاسباب التى شنت من أجلها إلى أمرين اثنين هما : الدفاع عن النفس ، وحماية الدعوة الاسلامية وأما الأموال ، والنفوذ ، وتوسيع رقعة الدولة ، فهى أمور ترتبت على القتال بحكم الطبيعة وناموس الكون

ويمكن تلخيص أهم الآثار والنتائج للحروب التى قام بها الخلفاء الراشدون بوجه خاص فيما يأتى :

(١) ظهور الامة العربية فى الميدان الدولى :

فقد كانت هذه الامة وقت رسالة الاسلام ، موزعة هنا وهناك لايجمعها ملك واحد تدين له بالولاء ، وليست لها سياسة موحدة ، ولا شريعة منظمة ، بل كانت منها جماعة تتبع الفرس فى العراق واليمن ، وأخرى تدين للروم فى الشام وما جاورها . وكانت شهرة العرب فى التنازع والتنابذ ، والهمجية والفوضى ، اللهم إلا ذلك الضرب من الفصاحة

الفطرية والبلاغة البدوية التى لا يد لهم فيها ، ولا شأن لقومهم في تكلفها ، وما اشتهر به العربي من الانفة والشجاعة والكرم والنجدة ، والتى استغلها المستعمر من الفرس والروم فى ضرب القبائل بعضها ببعض ، ففرقوا بينهم ليسودوا عليهم ، ويسخروا جزيرتهم لصوالحهم وشهواتهم

فلما توحدت الجزيرة ، وانضوت تحت شريعة الاسلام ، أصبح للعرب شخصية ، ودولة قوية أمكنها أن تقوض دول الفرس والروم ، وأن تؤسس على أنقاض الظلم والطغيان والاستبداد التى أشاعها هؤلاء في الدنيا ، دولة مؤسسة على التقوى من أول يوم ، فشاع العدل ، وعمت المساواة وأخصب الناس فى كل شبر دان بالاسلام ، ورضى بادارته ، وبذلك أصبح للامة العربية صفة دولية قوية ، وكانت الدولة الاسلامية العظمى

على أن من أهم الانقلابات المترتبة على ظهور الدولة العربية في أحضان الاسلام ، ذلك الانقلاب الشامل الذى غمر المعمورة كلها ، فلقد زالت امبراطورية الفرس نهائيا ،

وأصبحت أملاك الاكاسرة قطعة من الدولة العربية الاسلامية ، وغزت مبادىء الاسلام قلوب الفرس فدانوا — طوعا لا كرها — بمبادئه ، وأسلموا لله ، وأصبحوا من أخلص الناس لتعاليم محمد ، وشريعة القرآن

وليس الروم المسيحيون بأقل شأنا من الفرس ، فهذه أملاك الدولة البيزنطية فى آسيا وأفريقية تقتطع من أباطرة الروم ، وتتبع الدولة الاسلامية ، ويعتنق الشاميون والمصريون والافريقيون إلا قليلا منهم — مبادىء الاسلام ، ويصبحون عاملا قويا من عوامل نشر والدفاع عن دولته وهذا الانقلاب ليس إلا وليد الحروب التى دافع بها العرب المسلمون عن أنفسهم ومبادئهم فكان انتصارهم على الظالمين ، وتملك أرضهم وديارهم ورعاياهم الذين رضوا بشريعة العرب ، وقوانين الاسلام التى تضمن للجميع العدل والرحمة والمساواة

(٢) التطور فى فنون الحرب والسياسة :

فقد كانت الحرب تنشأ بين الشعوب من أجل قطعة من الارض ، يراد تملكها ، أو بسبب اعتداء يقع على بلد

أو قبيلة ، ولكنها الان تطورت فأصبحت الحروب بسبب المبادىء ، فالمسلمون يريدون أن تكون مبادئهم هى السائدة على الجميع والمشركون والمجوس وغيرهم يريدون سيادة مبادئهم وهنا اصطدمت هـذه المبادىء المتناقضة ، وأصبح اتباعها وجها لوجه .

على أن هذا لم يكن كل شيء في التطور الحربى. بل نجد لونا جـديدا آخر ، وهو ما كان يعرضـه الغزاة العرب على أعدائهم من : الاسلام أو الجزية أو المناجزة : و عدم التعديل فى هـذه الـكلمات الثلاث حسب ترتيبها . وهذا ضرب لم يعرف لدى الفرس والروم ولا غيرهما من قبل .

ثم هذه المعاهدات ، التى ابنا بعضا منها فيما سلف ، لم تكن معروفة بشكلها الاسلامى قبل ظهور الدولة الاسلامية وحروبها .

عـلى أن النتيجـة الفريدة التى نجمت عن حروب المسلمين بعد فتح البلاد ، هى تلك السياسة الفذة التى أرضت جميع الشعوب إلا من كان فى قلبه حقد على العدل والمساواة

ممن كانت تحدثهم نفوسهم بالثورات والعصيان ، وهؤلاء اضطروا المسمين احيانا إلى الشدة معهم والتنكيل منهم .

لقد ساس المسلمون الشعوب التى فتحوها ، فأحبتهم وقدرتهم ، وامتزجت معهم حتى كان هذا اللون البديع من عباقرة الاسلام فى الشرق الاسلامى ، واسبانيا ومصر الاسلاميتين ، وغيرهما .

٣ — ومن أهم النتائج التى ترتبت على الحروب . إلى جانب توسيع رقعة الدولة ، ونشر مبادىء الاسلام في البلاد المفتوحة وانتشار العلوم والحضارة العربية . — تسرب المبادىء الاسلامية إلى الملل والنحل الاخري ، التى كانت تدين بها الامم المجاورة ، وقد زالت بعض هذه الديانات بعد أن التقت بالاسلام ، فى أول جولة ، من جولات النضال وذلك يظهر بوضوح في ديانات الفرس من زداد شتية ، وما نوية ومزدكيه ، ومن تلك الديانات ما صمدت ، ولكنها بدأت تعدل فى مبادئها وفقا لما ينادى به العرب في كل مكان من توحيد الله . ونلحظ هذا التعديل بعد الاسلام ، فى الخلاف

الذي نشأ حول عبودية المسيح والوهينه والوهبة العذراء وبشريتها ، وعبادة الصور وتقديسها ، أو اعتبارها أمورا عادية ، ولقد تفاقم هذا النزاع بين قساوسة المسيحية ولا سب فى بيزنطه وايا صوفيا حيث كان المسلمون والمسيحيون يلتقون كثيرا ويتحادثون فى الدين وغيره بحكم العادة ، ولعل كثيرا من مذاهب المسيحية بدين بوجوده لتعاليم محمد والقرآن

فالفتوحات الاسلامية إذن أنتجت تعديلات كثيرة فى الملل والديانات الاخرى ، بل أن الباحث عن خشوء الفرق المسيحية أو جلها ، وكذلك اليهودية ، ليرى أن أساسها احتكاك هؤلاء بالمسلمين وتسرب الاسلام بمبادئه الصافية الصريحة إلى نفوسهم .

وعلى الجملة فان حروب الراشدين التى كان هدفها ـ كما أسلفنا ـ الدفاع عن النفس والمبادىء قد أثمرت ثمرا شهيا طيبا فى تأمين النفس والمبادىء ، وأصبح الراكب يسير من صنعاء « إلى بصرى » لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه كما أخبر رئيس الدولة الاول صلى الله عليه وسلم

هذا فضلا عن ذلك الابتكار والتجديد في نظم الحكم والادارة مما سجله علماء الدنيا بالحمد والثناء على العرب الفاتحين وأسلوبهم الحازم في معاملة الشعوب التي دانت لدولتهم أمدا طويلا ، وخضعت لسلطانهم فترة غير قصيرة .

ونجتزىء بهذا القدر من نتائج حروب الخلفاء ، لنسرع بكم إلى فترة غامضة من حقب التاريخ الاسلامي . وتلك هي ثورة الامصار على الخليفة الثالث ، وما انتهت إليه ، ثم خلافة علي ، ونزاعه مع معاوية وكيف انتهى هذا النزاع

ومع اكفهرار ليل الحوادث المتناقضة في هذه الحقبة ؛ فاننا نرجوا أن نوجز كلمة في هذا تعطيكم فكرة واضحة عنه تطمئنون إليها باذن الله تعالى ، على أن نعود لتفصيل أوفى في الكتاب التالي

ثورة الامصار الاسلامية وأسبابها :

من أهم أسباب الثورة تلك الدعاية الخبيثة التي تولى

بثها ابن السوداء [١] وألف لها أنصارا يدعون لمذهبه فى الوصية والرجعة [٢] ، والطعن على ولاة عثمان بما زعموه أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر .

ومن أهم الاسباب أيضا عزل عثمان عمال عمر ، وتولية بدلهم من أقاربه ، فعزل عمرو بن العاص عن القسطاط ، وولى بدله عبد الله بن سعد ، وعزل أبا موسى الاشعرى ، وعزل المغيرة بن شعبة وولى على العراق عبد الله بن عامر ، وجعل مروان وزير الخلافة الاول ، والمتصرف فى جميع شئونها . ومعاوية مستبد باجناد الشام ، وبذلك أصبح المهاجرون والانصار ليس لهم من أمر الدولة شىء ، وقد قامت بسيوفهم وتضحياتهم .

---

(١) هو عبد الله بن سبأ أحد يهود اليمن الذين اسلموا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم ونظم دعايته ليوقع الفوضى بين المسلمين فى عهد عثمان .

(٢) من مبادىء السبئية القول برجعة الرسول بعد موته ، ويقيسون ذلك على رجوع موسى من التيه ، كذلك يقول ابن السوداء بأن الرسول نص على خلافة على بعده ، ووصى المسلمين فى نص وضعوه كذبا على رسول الله .

ولذلك تفاعلت هذه الاسباب مجتمعة ، وكانت تلك الثورة الجامحة التى لم يستطع كبار المسلمين أن يحولوا بينها وبين هدفها الوحيد من عزل عثمان أو قتله إن لم يعتزل .

ولما ارتفعت الشكوى من عمال عثمان ، واستبدادهم بالرعية فى أماراتهم ، ذهبت وفود من الفسطاط والبصرة والكوفة متظلمة من أمراء عثمان فى نواحيهم ، وقد حاول عثمان أن يصلح الامر ويتلافاه كما تكلم على عدة مرات فى هذا الشأن ، وصرف الوفود إلى بلادها ولكن عثمان بتحريض مروان بن الحكم أبى الاستماع إلى نصائحه ، وأخيرا جاءت الوفود إلى المدينة تحمل كتابا من مروان ، كتبه بخطه ، وختمه بخاتم الخليفة وأرسله مع ورش غلام عثمان إلى عامله على مصر يأمره الخليفه بقتل الذين وفدوا على المدينة ولقد عرض هذا الكتاب على الخليفة عثمان ، فصرح بأنه لا يعلم من أمره شيئا ، وهنا طلب منه الثوار أن يسلم إليهم مروان ليقضوا فيه بما أمر الله فأبى أن يسلمه ، فاستشاطوا غضبا ، وحاصروا الخليفة فى بيته . ويقال أن أقاربه تخلوا عنه

وقت الشدة وهربوا من المدينة ولكن عليا وأولاده وموالية دافعوا عنه دفاعا مشهودا بحيث لم يستطع المتآمرون أن يتغلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم .

وأخيراً تسلق اثنان منهم جدار بيته وقتلاه وهو ابن ٨٢ سنه أو ٨٦ سنه ، وكان ملتحيا ، متوسط القامة ، بارز عضلات الوجه ، وقد كانت تعوزه قوة العزيمة وصلابة الرأى بيدانه امتاز بالجود والكرم ، ومما أذيع عنه أنه أهدى مروان فى عدة مناسبات أموالا طائلة من بيت المال ، وكذلك ابن سعد وغيرهما من أقاربه مما جلب عليه سخط الرأى العام

بيعة على

ولما قتل عثمان ، بويع لعلى رضى الله عنه ، وقد كان فى خلال عهد الخلفاء الثلاثة أحد أركان هيئة الشورى فلم يأل جهدا فى مساعدتهم وتزويدهم بالارشادات القيمة

كذلك ينسب كثير من الاعمال الادارية العظيمة التى تمت في عهد عمر إلى إرشاداته . إذ كان فى الواقع يعتمد عليه ويركن إلى نصحه ، فأنابه عنه مدة سفره الى الشام .

ولـكن عليا كان داعما فى جميع أطوار حياته مستقل الرأى ، لايداهن ولا يرائى ، متفرغا إلى العلم وتهـذيب أولاده . ويقال أنه حين افضت إليه الخلافة توجه إلى الجامع النبوى ببساطته المعهودة ، وأخذ يتقبل البيعة من الناس ، وهو متوكىء على قوسه الطويل وكان فيما قال : انه مستعد للتنازل عن الخلافة لمن هو أحق بها منه : وأنه ليخيل للمرء حينما بويع على أن الـكل سيطأطىء هامته أمام هذه العظمة المتلألئة الطاهرة ، ولـكنه قدر غير ذلك ، فلقد أحاط به فى بادىء الامر عداء بنى أمية ، ولـكنه لم يحتط للدسائس ، وأبى أن يقر عمال عثمان مدفوعا بشرف الغاية التى كانت من أبرز ميزاته .

وعلى الرغم من النصائح المتكررة التى اسديت إليه لمسايرة الظروف . فقد أصدر أمرا بانتزاع الاملاك التى اقطعها عثمان لاقاربه وأتباعه من بيت المال ، وقسم الخراج طبقا للقواعد التى سنها عمر ، فجلبت هذه الاجرات الحازمة سخط الذين أثروا فى العهد الماضى ، وقد تنازل بعض العمال

عن مغاصبهم بدون مقاومة ، بينما رفض بعض النزول على أمر الخليفة ، وكان زعيم حركة المقاومة معاوية أمير الشام الذى جمع من ولايته ثروة طائلة وأعد تحت امرته جيشا لجبا يدين له بالولاء ، وهكذا أعلن معاوية العصيان بعد أن احتاط للامر واستعد للمقاومة (١)

(١) أنظر ترجمة وافية لعلى ، وأبرز الاحداث فى عهده فى الملحق الخاص به فى آخر الكتاب .

تذييل

على بن أبى طالب

ترجمته ـ أبرز الاحداث فى خلافته ـ مقتله وتولية الحسن

ترجمة على :

هو على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف ، فهو ابن عم رسول الله لان أباطالب وعبدالله اخوان شقيقان وأمه فاطمة بنت أسد . ولد قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة . وكفله الرسول وهو صغير ولما بعث صلى الله عليه وسلم كان على أول مسلم من الصبيان نام مكان الرسول ليلة الهجرة مضحيا بنفسه فى سبيل الله وزوجه النبى ابنته فاطمة فانجبت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب الكبرى .

شهد المشاهد كلها عدا تبوك فقد أذن له الرسول ليكون خليفة عنه فى أهله . عرف بالشجاعة وقوة الارادة والفقه فى الدين والسلوك القاصد لسبيل الرسول ، أما فصاحته وبلاغته فضرب

الامثال ومحط الرحال بايع للثلاثة وهو مطمئن النفس ، مع أنه أحق منهم بها فى رأيه ، ولـكنه يجل الوحدة ، ويحب الجماعة . بويع له بعد قتل عثمان وهو كاره وخاض الحروب التى أعلنها بعض المسلمين على خلافته وهو متذمر لم يدع بابا من أبواب الوفاق إلا طرقه ، ولا نافذة من نوافذ الصلح وجمع الشمل الا فتحها ولـكنه الجىء الجاء ، وأكره اكراها على خوض حرب أخوية ـ ومكروه أخاك لا بطل ـ رضى الله عنه وكرم وجهه وغفر الله لنا وله ولسائر المسلمين

خطبته

وبعد أن تولى الخلافة ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز جل انزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا الخير ودعوا الشر . الفرائض أدوها إلى الله سبحانه يؤدكم إلى الجنة . إن الله حرم حرما غير مجهولة ، وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها ، وشد بالاخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ، ولا يحل اذى المسلم الا بما يجب . بادروا أمر العامة ، وخاصة أحدكم الموت . فان الناس أمامكم . وان ما من خلفكم الساعه تحدوكم

تخففوا تلحقوا . فانما ينتظر الناس أخراهم . اتقوا الله عباده في عباده وبلاده انكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه . واذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه » واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض » .

كان أول شيء عمله على بعد البيعه أن أصدر أمرا بعزل أول أعماله جميع أمراء الامصار في العهد العثماني ، وذلك قبل أن تصل اليه بيعة أهل الامصار . وقد حاول المغيرة وابن عباس أن يصرفاه عن ذلك فرفض رفضا باتا . ثم فرق عماله إلى جميع الامصار . فمنهم من تمكن من الدخول في ولايته الجديدة . ومنهم من حيل بينه وبينها فعاد الى المدينة .

ومن أشهر الذين رفعوا لواء العصيان معاويه أمير الشام الذي رد سهل بن حنيف عامل على الجديد . وأرسل إلى على كتابا يخبره بعدم الطاعة له حتى يأخذ بثأر عثمان من قتلته وقد لج معاوية في الخصومة فيما بعد حتى اتهم عليا نفسه بالشركة في دم عثمان

وحذا حذو الشام الكوفة ، فقد ردت أميرها عمارة ابن شهاب . أما البصرة ومصر فقد انقسمت على نفسها ، واستطاع الامير الجديد أن يدخلها ويعالج بعض أمورها .

أما اليمن فان عليا أرسل إليها ابن عمه عبيد الله بن عباس فدخلها وضبط أمرها ، ولكن بعد أن جمع الامير العثمانى كل ما فى بيت المال وحمله ولجأ إلى مكة .

أبرز الاحداث فى عصره :

الجمل

أبرز الحوادث فى خلافة على ـ وكل أيام الرجل حوادث دامية ـ الى جانب عزل العمال والعصيان من كل ناحية . موقعة الجمل التى سببها خروج طلحة والزبير وعائشة ، وانضمام بنى أمية اليهم ، ثم محاولة هؤلاء ان يدخلوا البصرة ويتملكوها ، فكانت تلك الواقعة الدامية التى ذهب فيها كثير من رجالات الاسلام وأبطال الدولة ، وعلى رأسهم طلحة والزبير وذلك فى رجب من سنة ٣٦ هـ .

صفين

ثم لم يكد يندمل جرح (الجمل) حتى أعقبها (صفين) بين على ومعاوية ، وقد استنفد على جهده مع معاوية فى

سبيل الصلح ومراجعة الجماعة ، ولكنه باء بالفشل فلم يكن بد من القتال . فالتقى الجمعان المسلمان الاخوان فى سهل صفين بين الشام والعراق، وأخذ الفريقان يتناوشان ببعض الكتائب من الجيشين طوال شهر ذى الحجة من سنة ٣٦ هـ . فلما أهل المحرم من سنة ٣٧ هـ تودع الفريقان الى انقضائه طمعا فى الصلح ، واختلفت الرسل بينهما ، ولكن لم تسفر هذه الرسائل والرسل عن نتيجة حاسمة للمصالحة ، ولذلك ما كاد يهل شهر صفر من سنة ٣٧ هـ . حتى عبأ الطرفان قواتهما وشرعا فى الحرب على طريقة الفرق الصغرى السابقة .

وحوالى ٨ من صفر سنة ٣٧ هـ أصدر على أمرا بالهجوم العام لوضع حد لهذه المناوشات التى لا تكاد تنتهى ، وبذلك التحم العراقيون بالشاميين ، وظلوا يومين كاملين يقتل بعضهم بعضا ولا غالب منهم ولا مغلوب .

ولكن بعد ليل اليوم الثانى (ليلة الهرير) اشتد الامر على أهل الشام ، فطلبوا التحكيم ورفعوا المصاحف على أسنة الرماح ، ينادون : هذا كتاب الله بيننا وبينكم .

من لثغور الشام بعد أهل الشام . من لثغور العراق بعد أهل العراق .

ولما رأى أهل العراق ذلك طلبوا من على اجابة أهل الشام الى كتاب الله ، فلما أفهمهم أن هذه خدعة ، وأن الخير لهم أن يصبروا ساعة ليكون النصر تاما . لم ينصاعوا لنصحه فأوقف على القتال . ثم كان التحكيم ، وكان الفشل الذريع فى صفوف على ، والنصر الهائل فى صف معاوية .

نتيجة التحكيم

فقد أعلن عمرو بن العاص خلافة معاوية ، وانقسم اتباع على على انفسهم . فمنهم محبذ لسياسه على فى حرب أهل الشام ، ومنهم الخارج عليه المتردد فى دينه وسياسته وهؤلاء هم الخوارج الذين زعموا ان عليا حكم الرجال في دين الله ، فهم يطلبون منه أن يتوب بعد أن يقر أمامهم بأنه كفر ثم هم يسيرون معه الى عدوهم وعدوه .

ولكن عبثا حاول على أن يقنعهم بالعدول عن هذه المهاترات الباطلة ، وكانت بينه وبينهم مواقع فى النهروان وغيرها

مقتل على ربيعة الحسن

وفى رمضان من سنة ٤٠ هـ تآمر الخوارج على الفتك بعلى ومعاوية وعمرو ، ولكن نجا الاخيران ، وأصاب قضاء الله عليا فاستشهد فى المسجد . فى ١٧ من رمضان من سنة ٤٠ هـ فبويع لابنه الاكبر (الحسن بن على) فى رمضان من نفس العام وقد أخذ الحسن على عاتقه من أول يوم أن يكافح معاوية الذى اشتدت شوكته حتى اقتطع كثيرا من أملاك الخلافة الهاشمية فى العراق نفسها ، بعد أن ضم إليه مصر وبعض البلاد الاخرى وتشاء المصادفات السيئة أن تقوم ثورة فى المشرق الاسلامى التابع لخلافة الحسن فيخرج الحسن على رأس جنده لاخماد الثورة

وبينما يحاول الحسن تسكين الفتنة فى هذه الناحية ، يثور جنده ويسلبون متاعه ويحاولون الاعتداء عليه حتى لقد هدده بعض منهم بتسليمه الى معاويه .

وهنا فكر الحسن جديا فى ترك هذا الجند المتقلب الذى لا يثبت على رأى ، ولا يدافع عن عقيدة . فكتب الى معاوية يدعوه للصلح والجماعة . ويخبره أنه مستعد لعكس

الموقف الذى وقفه أبوه من قبل .

وقد كانت عيون معاوية مبثوثة فى جيش الحسن نفسه فوصلت انباء التمرد من جيش الحسن قبل أن يفكر الحسن فى مراسلة معاوية . ولذلك يقال ان معاوية أرسل رسله الى الحسن يبذل له ما يحب في قرطاس أبيض ختمه من أسفله وطلب منه بأن يكتب كل ما يحب وهو مجيبه إليه .

وفى هذا الوقت أرسل الحسن رسله وكتابه الى معاويه حتى كانت رسل الرجلين فى طريقهما الى الشام والعراق في وقت واحد وبدون علم واحد منهما برسالة الاخر .

ولقد تم تنازل الحسن بشروطه فى أواخر ربيع الاول من سنة ٤١ هـ . وبذلك ختمت تلك الصفحة الدامية من صفحات النضال العنيف بين الهاشميين والامويين بانتصار هؤلاء ، وتأسيس دولتهم الاموية التى ظلت تحكم حتى سنة ١٣٢ هـ حيث أزالها بنو العباس من دمشق ، وأقاموا على انقاضها فى الكوفة فبغداد دولة هاشمية . ـ عمرت حتى سنة ٦٥٦ هـ . والملك لله يؤتيه من يشاء ،

الخطا والصواب

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
٥	٤	ضحة	حنتمة
٣	٥	فاستدلوا به	فاسندوا اليه
٢ حاشية	٦	مختصر تاريخ ص ٥	مختصر تاريخ العرب ص ٥٠
٨	٧	على فراش	على فراش الموت
١٣	٨	ايا عبيدة	ابا عبيد
١٤	٨	سرعا	مسرعا
١	١٠	مقطوعة	متطوعة
١	١٠	عدد الغير	عددا غير
٤	١٠	المودة	الردة
٢ حاشية	١١	الذين	الذى
٢	١١	بعددهم	بعدوهم
٤	١٢	عملوا لم	وعملوا على لم

السطر	الصفحه	الخطأ	الصواب
٥	١٢	القرزان	الفيرزان
٥	١٤	رهقاء	رهقاً
٨	١٤	جمعها	جموع
١٢	«	زهو	رموه
١٤	«	تلقوا	تلثوا
٦	١٥	المجتين	المجنبتين
٨	«	يريمه	يرميه

هـذا نموذج من بعض الاخطار ونكل الى فطنة القارىء اصلاح مايصادفه من اشباهها والله الموفق وحده